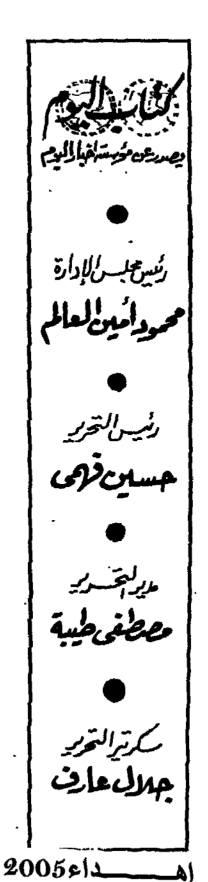


يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم

احمد بهاء الدين

أيّام لها تاريخ!



كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة

محمود أمين العالم

رئيس التحرير

حسين فهمي

مدير التحرير

مصطفى طيبة

سكرتير التحرير

جلال عارف

إهـــــداء 2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود

القاهرة

أيام لها تاريخ !

الغلاف والرسوم الداخلية
بريشة الفنان
مصطفى حسين

مقدمة

أيها القارىء !

هل عرفت أحدث تعريف للانسان ؟

لقد قيل مرة : أنه حيوان ناطق ، ثم تبين أن الببغاء تنطق ..

وقيل : انه حيوان ضاحك ، ثم تبين أن القرود تضحك ..

وقيل : أنه حيوان عاقل ، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل وان كان العقل درجات !

وحار العلماء طويلا : فالانسان كائن حى ، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات .. ولكن المؤكد أن هناك شيئا مايميزه عن الحيوان .. شيئا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذى يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة ..

وأخيرا اهتدى العلماء الى التعريف الدقيق : الانسان حيوان ذو تاريخ !

ما معنى ذلك ؟

معناه ان الميزة الاولى التى تميز الانسان عن غيره من المخلوقات هى أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذى سبقه ويستفيد منها .. وأنه بهذه الميزة ـ وحدها ـ يتطور .. وعلى العكس من ذلك الحيوان .. فالاسد أو القط أو الكلب الذى كان يعيش فى الارض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التى نراها اليوم .. فى الصفات والطباع ونوع الحياة ..

أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذى تجده فى بيتك بنفس الطريقة التى كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم . مصيدة وقطعة جبن ! ولو كان فى بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تتصيدها واحدا بعد آخر ، يوما بعد يوم ، بنفس المصيدة وقطعة الجبن .. ذلك أن الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة .. هى لاتعرف أن فى اليوم السابق دخل الفأر ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة ، وهى قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى .. فلا تتحاشى أبدا قطعة الجبن ..

وعلى العكس من ذلك .. الانســان .. أنه يعرف ما أصــاب أسلافه بالامس ، ومنــذ مائة سنة ، ومنــذ آلاف السنين .. فهو قادر على أن يتجنب زلاتهم ، ويستفيد من تجاربهم ، ويضيف الى

اكتشافاتهم . وكل جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف الى ما سبق .. وهذا هو التقدم ..

على أن الانسان لا يولد وعبرة التاريخ في جوفه .. ولكنه يتعلم .. فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ الا اذا قرأ .. ان كان رجل قانون قرأ ما سبق اليه فقهاء القانون .. وان كان رجل كيمياء تعلم ما وصل اليه المكتشفون السابقون .. ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ .. وان كان مواطنا فانه يتعلم تاريخ وطنه كله ، ويدرك مغزاه ، وسر تطوره ، واتجاه خطواته ..

وليس يكفي أن تعرف حوادث التاريخ لكي تحسب انك قد تعلمت التاريخ .. فالاهم أن تستخلص من هذه الحوادث عبرتها : على أى شيء تدل ؟ .. وفي أى طريق يمضي التاريخ ؟ فان ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود .. فيجنبك أن تكون رجعيا ، ويحميك من السير وراء دعوات براقة فات وقتها .

والتاريخ هو الفرق بين الانسان الواعى ، وغير الواعى ..

الانسان غير الواعى لا يرى الا قطعة الجبن ..

ولكن الانسان الواعى يرى قطعة الجبن ، ويرى المصيدة !

ولست أعرف شيئا يجدر بالمصريين أن يصنعوه الآن أكثر من أن يقرأوا التاريخ .. ففى هذه اللحظات التاريخية التى تعصف فيها التيارات بمصر والعالم كله ، وتتراقص أمام الاعين عشرات الآراء والنظريات والفلسفات .. لن يجد المواطنون أرضهم الثابتة الا فى تاريخ وطنهم .. ولن يعرفوا طريقهم الا اذا أدركوا فى أى طريق سار هذا التاريخ قبلهم ..

وقد جلست أكتب لك — أيها القارىء — قصة تطورك فى المائة والخمسين سنة الاخيرة لترى كيف أن جهادك كان يتجه دائما نحو مزيد من الحرية ، ومزيد من العدل .. وأنك كنت تضع أهدافك هذه في دساتير .. فالدستور هو صك الحرية والمساواة .. على أن هذا عمل كبير لا يمكن انجازه الا بعد وقت طويل ..

ولم أستطع أن أصبر عنك — أيها القارىء — هذا الوقت الطويل ، والايام تجرى .. فأخذت لك من كل فترة قصة صغيرة ، «لقطة» حية خاطفة تعطيك فكرة عن عصرها ..

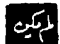
وما أرجو من هذا الكتاب الا أن يكون حافزا لك أنت على أن تقرأ التاريخ .. وأن تستخلص منه العبرة أنت .. أنت بنفسك، بلا أساتذة !

أحمد بهاء الدين

الأدباتى .. خطيب الثورة



عبد الله النديم



هناك فرق بين الاديب .. و « الادباتى » ! ..
أليس «الادباتى» رجلا يدور على المقاهى يقرع طبلة صغيرة فى يده ؛ ويهز طرطورا على رأسه ، وينشد الازجال والاسجاع والفكاهات .. ثم يخلع « الطرطور » ويجمع فيه من الجالسين قروشا .. ؟

كذلك كان الاديب فى ذلك الزمان .. كل صفاته أن يكون حافظا فكاهات العرب ونوادر الخلفاء ، بارعا فى التلاعب بالكلمات .. هو لا يلبس طرطورا ولا يقرع طبلة ولا يدور على المقاهى .. ولكنه يمارس نفس العمل تقريبا فى بيئة أكثر احتراما : يجلس فى الندوات التى تعقد فى بيوت الاغنياء ، يدلى بفكاهاته وأسجاعه وينشد أبيات الشعر القديم .. وغالبا ما يكون طعامه أو معاشه على هذا الغنى صاحب الندوة ..

ولم يكن بين الناس من كان « أديبا » وكفى .. ولكنك كنت ترى الواحد منهم موظفا أو معلما أو صاحب تجارة .. وأديبا الى جانب ذلك .. وكان من الشائع أن تعقد الندوات الادبية بجوار أبواب بعض الدكاكين التى يملكها الـ « أدباء » .. وكان هذا مكملا للفكرة الشائعة عن الادب أنه شىء للمتعة وتزجية الفراغ فحسب .. لا يمكن أن يكرس له انسان عاقل محترم كل حياته وكل جهده ..

ستقول ان بين الادباء فى زمننا هذا من لا تزيد مهمتهم — فعلا — على مهمة الادباتى .. يكتبون للتسلية والتسرية ، بلا موضوع ولا قضية .. ومنهم من لا يزيد فضله على أنه قد قرأ كتب الاقدمين أو المحدثين فهو يعرضها بألفاظ جديدة .. يلوح بها كما يلوح « الادباتى » بطرطوره .. بلا غاية غير كسب الرزق أو كسب الاعجاب .. وهذا صحيح كله ، ولكن تلك قضية أخرى ..

أما « الادباتى » الذى أقص عليك قصته .. فقد كان من أول المصريين الذين عرفوا لادبهم رسالة وكرامة .. نعم ، فقد سبق هذا الادباتى أبناء عصره من الادباء .. وأصبح هو نفسه أديبا ، وخطيبا ، وصحفيا ، وزعيما من زعماء الثورة العرابية البارزين..!

وفى الاسكندرية ولد « عبد الله النديم » فى حارة ضيقة من حوارى حى الجمرك القريب من الميناء .. وفى حارة أخرى قريبة كان يوجد « فرن » بلدى صغير يملكه أبوه « مصباح » .. فاذا

جاء المساء واغلق الرجال دكاكينهم ، وعاد عمال الميناء والباعة المتجولون الى بيوتهم.. اظلمت الحارة والحوارى المجاورة الا من ذبالات تخفق من النوافذ .. ونفض الاولاد أيديهم من التراب الذى يلعبون فيه .. وعكفت النساء على تجهيز العشاء الرخيص وجلس الرجال أمام أحـــد بيوت الحارة يتحـدثون عن متاعب يومهم ويدخنون — فى أيام الرخاء — أنفاس « الحشيش » ..

هذا هو المجتمع الذى فتح عليه « النديم » عينيه .. !

وكبر الصبى وخرج من حارته الى الحوارى المجاورة..وجرى مع الاولاد الى الميناء .. وتفرج على « الطابية » القديمة القائمة هناك .. ورآها يوما وهى تطلق مدافعها والبيوت الصغيرة من حولها تهتز وتتساند ، والناس بعد كل طلقة يصيحون .. وعرف من الكبار عندما عاد الى الحارة أن ذلك كان اعـلانا بوفاة حاكم مصر «عباس باشا الاول» وتولية «سعيد باشا» .. ولعله سمع منهم بعد أيام أن عباس كان رجلا شاذا قاســيا ، يسكن جوف الصحراء ويقتنى الوحوش الضارية .. وانه مات مخنوقا ، فى فراشه ، بأيدى خدمه ..

ولا بد أنه قد أخـــذ يستمع مع الايام الى مزيد من القصص والشكوى .. وأنصت الى الكبار وهم يتحـدثون عن الخواجات الذين يأتون مصر ويهبطون الميناء فى تلك الايام بكثرة غريبة .. خواجات مفلسون لا تمر عليهم سنوات قليلة حتى يصبحوا من أصحاب الثروات الطائلة .. خواجات تعنو لهم جباه الرسميين ويحاطون بحقوق ومزايا ترفعهم فوق مستوى المواطنين .. وهم يفتحون الخمارات ويرتهنون البيوت والاطيان والجو كله قد بدأت تملؤه رائحة « افرنجية » غريبة .. والباشا الجديد « سعيد » يفتح لهذه الرائحة ذراعيه ، وخياشيمه ، وحواسه كلها .. ولم يكن صعبا أن يدرك الناس أن هـــذه الرائحة الافرنجية ليست رائحة ثقافة وحضارة وتجارة .. بل رائحة استغلال واستغفال وسرقة ..

وكان هذا هو أول ما تعلم « النديم » من سياسة .. !

وكان أبوه قد أرسله الى « كتاب » صغير على رأس الحارة ، أظهر فيـــه تفوقا ملحوظا ، ثم الى مسجد « الشـيخ ابراهيم » القريب ليتلقى فيه بعض دروس اللغة والدين .. على أن الفتى يبدى انصرافا عن ذلك كله ، وقد ركبته « عفرتة » غريبة .. فهو فى الواقع لم يخلق لكى يتعلم شيئا بين الجـــدران ، متربعا على

الحصير .. انما خلق ليتأمل هذه الحياة الحقيقية التى كانت الكتب حتى ذلك الحين تترفع عن دراستها والتعرض لها ... هذه الحياة المصرية الصميمة ، التى يعيش فيها « ابن البلد » الحقيقى .. ابن البلد بذكائه الفطرى الذى عصرته الآلام فلم تبق منه غير نكتة حاضرة ، بكسله الذى أورثته اياه قرون عاشها فى بلده غريبا يتفرج على الغرباء الذى يحكمون .. وبأمراضه التى تسربت اليه من سنوات اليأس والجمـــود .. يتعاطى الحشيش للفرار الى الغيبوبة ، ولا يتباهى الا بفتوحاته مع زوجته ، وكثرة أطفاله الذين يملأون الحوارى ويأكلون التراب .. ابن البلد الذى يعيش فى كل هذه القمامة .. ينتظر الهزة العنيفة التى تطردها عنه ..

ويضيق الاب بهذا الفتى الشارد اللب ، الذى يترك الدراسة فى المسجد ليتفرج على المقاهى ، ويقف عند المشاجرات ، ويتابع الادباتية ، ويرقب « قعدات » الحشيش .. ولا يعود الا بمحصول من القوافى ، والازجال ، والسخريات ، والنكت البذيئة .. شارد دائما متصعلك أبدا ، كأنه يبحث عن شىء نادر ضـــائع يريد أن يلتقطه ، من طين الحياة ..

ويقول له أبوه : أخرج .. لتكسب رزقك ..

ويترك الفتى الاسكندرية كلهـــا .. ويبدأ حيـــاة غريبة من السياحة والمشاهدة والخبرة . حيـــاة لم يخترها لنفسه ، ولم يكرهها لنفسه .. انما مضى معها مدفوعا بسليقته ، ليعود آخر الامر مزودا بمعرفة عميقة لهذا الشعب لم يدركها أحد مثله قط ، وليصبح هو نفسه مخلوقا غريبا مركبا من كل ما فى هذا الشعب من قوة ، وضعف :

* ذهب الى القاهرة ليعمل فى وظيفة « تلغرافجى » فى القصر العالى الذى كان يقـوم فى جاردن سيتى وتسكنه والدة الخديو اسماعيل .. فانتقل ــ فجأة ــ من حوارى حى الجمرك الى ردهات قصر اسماعيل .. من مجتمع أبناء البلد وعمال البحر والحشاشين والنساء المكدودات الى عالم الامراء والاغوات والمحظيات .. ولكن « ابن البلد » الذى تعود جر قدميه فى طين الحارات اللزج ينزلق على بلاط القصور الاملس .. فهو سرعان ما يخطىء ، ويتشاجر مع خليل اغا رئيس أغوات القصر .. فيجتمع عليه الاغوات يضربونه ضربا مبرحا ..

ويطرد ابن البلد من القصر .. !

* وهو يصنع كالمثقفين المفلسين فى أوروبا فى القرن الثامن عشر حين كانوا يتكسبون بتعليم أبناء الامراء ! .. فهو يذهب الى عمدة من عمد الدقهلية كى يسكن عنده ويأكل من خيره ويعلم له أولاده .. ولكنه يختلف مع العمدة على الاجر ، وتهزمه طبيعته الفنية الناشئة فينشد فى العمدة هجاء مقذعا .. ويطرده العمدة .

* ثم هو يجرب التجارة .. فيفتح دكانا فى المنصورة يبيع فيه الخردوات ، ولكن باب الدكان تزدحم حوله المقاعد ، ويتجمع عليها المتأدبون والسمار والذين سمعوا عن خفة دم بائع الخردوات .. ومرة أخرى تهزمه طبيعته الفنية ، فهو منصرف عن البيع والشراء مقبل على انشاد الشعر واطلاق النكتة والمساجلات .. ويفلس الدكان .. !

* وهو يذهب فى مولد السيد البدوى الى طنطا .. ويكون جالسا متبطلا على أحد المقاهى حين يمر بها « أدباتى » محترف بطبلته وطرطوره ووجهه المدهون بالجير .. ويتجه الادباتى الى النديم منشدا :

أنعم بقرشك يا جندى والا اكسينا أمال يا أفندى
أحسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طوال جعان

وتتحرك فى النديم طبيعته فيرد عليه مرتجلا :

أما الفلوس .. أنا مديشى وان قلت لى : أنا مامشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان !

وتتصل بينهما مبارزة ينهزم بعدها الادباتى المحترف أمام الهاوى ، فينصرف ..

وتصل هذه القصة الى مسامع شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى — وكان من هواة ومشجعى أدب « الادباتية » — فيضحك كثيرا ، ويدعو النديم الى مساجلة عنيفة بينه وبين كبار الادباتية والزجالين .. وتعقد المساجلة فى سرادق كبير يقام لذلك خصيصا ، يخرج منها النديم ، الادباتى الهاوى ، فائزا على المحترفين !

على أن هذه الصعلكة تذهب عنه حين يعرف الطريق الى قهوة « متاتيا » فى القاهرة ، فى ميدان العتبة الخضراء .. اذ يرى « جمال الدين الافغانى » جالسا هناك كل مساء « يوزع

السعوط (١) بيمناه ، والثورة بيسراه ! » وقد جلس حوله عشرة أو عشرون من التلاميذ .. هذان المتجاوران حملا معا الى مصر بعض بذور الثقافة الحديثة : أديب اسحق وسليم النقاش .. وهذا الرجل المفتول الشوارب هو محمود سامي البارودي الذي سيلعب دورا رئيسيا فى الثورة العرابية بعد سنوات وهذا الشيخ الشاب القصير هو محمد عبده .. أما هذا الطالب الازهرى الطويل القامة فاسمه سعد زغلول .. سيقود ثورة أخرى بعد عشرات السنين - فى سنة ١٩١٩ .. وسيصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب .

ولا يمكن أن يكون النـــديم قد عرف الطريق الى قهوة متاتيا وهو مجــــــرد أدباتي .. لانه لا يمكن أن يستسيغ مجرد أدباتى تلك الجلسة الحادة الصـــارمة التى لا لهو فيها .. اذن فهو قد ارتفع بنفســـه قبـــل ذلك عن مستوى الادباء الذين يشـــبهون الادباتية الى مستوى الاديب ذى الرســـالة .. اذن فهو لم يكن ينظر الى مصير أبناء هذا الشعب نظرة استسلام ولم يكن يضحك منهم ضحكة بلهاء .. ولكنه كان ينظر اليهم نظـرة عامرة بالامل ويضحك منهم ضحكة مترعة بالنقد ..

هذا — أخيرا — هو الجو الذى يبحث عنه النديم .. فمن هذا المقهى الصغير تهب ريح الثورات المقبلة ، وعلى هذه المقاعد البالية يجلس أبطالها ، لا يعرفون بعد ما سيفعلون . وهـــذا الرجـل الافغاني العجيب لا ينقطـــع عن شرب « الشيشة » ، وينفث مع الدخان كلاما صاعقا تغلى له الدماء وتنفر العروق « انكم معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد ، وتربيتم فى حجر الاستبداد .. لقد تناوبتكم أيدى الغاصـــبين من الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم الاتراك والمماليك .. وكلهم يشق جلودكم بمبضـــع نهمـــه ، ويهيض عظـــامكم بأداة عســـفة .. ويستنزف قوام حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصـــا والمقرعة والسوط .. وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .. أنظروا أهـــرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وأجدادكم ! هبوا من غفلتكم .. واصحوا من سكرتكم .. عيشوا كباقى الامم أحرارا ، أو موتوا مأجورين شهداء ! ! » ..

و .. « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت

---

(١) اى : النشوق .

ما يمسك الرمق ويقوم بأود العيال .. لماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك !؟ » ..

آه .. هذا هو الكلام .. !

ان مشاكل الناس التى لم ينقطع النديم لحظة واحـــدة عن التفكير فيها .. وصور الحياة التعيسة التى رآها هذا المصرى الحقيقى فى أنحاء وطنه .. الفقر فى الريف والجهـل فى الحوارى والفساد فى القصور .. كل ذلك له سبب كبير ، رئيسى ، يرشده اليه الفيلسوف الافغانى : انه الاستبداد الاجنبى ، والمحلى .. والعلاج .. ؟

الثـــورة ! ! ..

ويهدأ القلق فى قلب النديم ويتبدد الضياع ، ويعود ينظر الى الامور على هذا الضوء الجديد .. ويسأل نفسه : كيف نزل كل هذا البلاء بوطنه .. ؟

لقد كانت تلك السـنوات التى قضاها عبـد الله النديم فى الصعلكة والتأمل سنوات خطيرة رهيبة فى تاريخ مصر ..

لكأن كل القوى قد اختارت هذه الارض ميدانا لمعركة عالمية ، حددت تاريخ هذا الركن من العالم لقرن بأكمله ..

كان الاستعمار فى عنفوانه يزخر بأحلام التوســع ، ويسكب أمواله فى مصر كالسيل المنهمر .. ليأخذها أضعافا مضاعفة .

وكان الاستبداد المحلى فى مصر يتمثل فى عرش الخديو وأسرته وطبقتــه واللائذين به يفتحون أيديهم وأفواههم لهذا الذهب ، ولا يجدون مانعا من اقتسام البلد مع الغرباء الوافدين ..

وكان الثائرون فى كل أنحاء الشرق الاوسط يهاجرون بعقائدهم من الاستبداد التركى ويتخذون مصر أرضا لكفاحهم والتعبير عن آرائهم ..

وكان شعب مصر نفسه يتأمل كل هذه الدوامات والدهشة فى رأسه اكثر من الفهم .. شأن من يسـتيقظ من نوم طويل على أحداث لم تطف بأحلامه قط ..!

كان التاريخ يدق أبواب مصر بشدة لم يسبق لها مثيل وهذه

القوى المتضاربة المتقاتلة تقلب الحياة المصرية كما يقلب المحراث بطن الارض ..

ثم جاء الرجل الملائم لكل هذه التيارات لانه يحلم ولا يفكر ..

وجلس اسماعيل على عرش مصر وعبد الله النديم ما زال يافعا فى الثامنة عشرة من عمره .. وقال : أريد أن تكون بلادى قطعة من أوروبا ولـكن ، بدلا من أن تذهب مصر الى أوروبا ، جاءت أوروبا الى مصر ! جاءت اليها فى صورة أموال أجنبية ، وموظفين وخبراء .. « كان الواحد منهم يأتى فقيرا مفلسا ، فلا يكاد يأوى قليـلا فى قاعات الانتظار بقصر عابدين حتى يصبح طفرة من أصحاب الملايين ! » ..

فلم يكن اسماعيل اذن هو الذى دعا اليه هذه الاموال .. لانه لا يكفى أن يقول لهذه الاموال : هنا .. فتجىء ! .. ولكن هـذه الاموال هى التى كانت تسعى الى دخول مصر سعيا حثيثا .. لم ينقطع منذ أطلق نابليون مدافعه فى صحراء الهرم الساكتة عند أبى الهول ! .. تريد أن تستولى على هذه الارض ذات الخيرات العجيبة ، والموقع الجغرافى الهام ..

واقرأ ــ لكى تصدق ــ تصريح بالمرسـتون الخبيث ، وزير خارجية انجلترا فى ذلك الوقت : « اننا لا نريد أن نحكم مصر .. نريد فقط أن نتاجر معها .. فلنعمل على « اصلاح » هذه البلاد بنفوذنا التجارى العام » ..

وانظر الى سـفير انجلترا فى استانبول « هنرى اليوت » .. يشرح لحكومته كيف يمكن اغراء اسـماعيل بالاقتراض : « ان ما ناله الوالى من حرية مطلقة فى شئون مصر الداخلية لا قيمة له اذا لم تطلق له حرية الاقتراض من الاسواق الاجنبية للحصـول على الاموال التى يحتاج اليها فى المشروعات النافعة لتنمية موارد بلاده العجيبة ! » ..

والمرابون .. أصحاب رءوس الاموال الاجانب الذين تهاطلوا كالمطر .. من تلقاء أنفسهم .. اقرأ وصف البارون فون ملورنى ــ أحد رجال السلك السياسى الاجنبى ــ لهم : « .. كنت ترى حجرات الوزراء غاصة بالدائنين الذين جاءوا يتذللون لكى يقدموا اليه ملايين الجنيهات بفوائد باهظة تحرمها قوانين العقـوبات فى

بلادهم ! .. ولما مرت السنون وضاق الحال بالحكومة انقلبوا يهددونه بالوقاحة التى نعهدها فى الدائنين اذا أفلس مدينوهم !».

الخبراء الاجانب ؟ .. هذا مراسل « التيمس » فى القاهرة يرسل الى جريدته فى يناير ١٨٧٩ قائلا : « أن أكثر كبار الموظفين من الاجانب .. ويظهر أن المرتبات الضخمة لا بد منها لتخفيف حنينهم الى أوطانهم ! وقد أصبح فى مصر الآن عدد كبير من الموظفين ذوى المرتبات الضخمة الذين لا عمل لهم سوى تناول مرتباتهم ! » .. ومراسل التيمس فى الاسكندرية يقول : « مما يلهو به الزوار ويتهكمون أن يحصوا الموظفين الاوروبيين القاعدين ، الذين يتقاضون آلاف الجنيهات فى الوقت الذى لا يستطيع فيه مئات من موظفى الحكومة الوطنيين الحصول على مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضى » ..

وكم مليونا اقترض اسماعيل ؟ ١٢٦ مليونا ! .. وهو رقم خرافى اذا عرفنا أن ميزانية مصر كلها كانت فى ذلك الوقت سبعة ملايين ونصفا ! ..

ولم يصنع اسماعيل بهذا المال معجزة .. ولا أصبح الناس فى مصر أغنياء .. ذلك أن ما انفق من هذه الاموال فى شق الترع واقامة المصانع كان أقل مما انفق فى اقامة القصور وأفراح الانجال ! واتسم العصر كله بطابع الاسراف الشديد ، الذى اتجهت اليه الطبقة الغنية الجديدة بكل قوتها ، تريد أن تقتدى بالاغنياء الاوروبيين فى متعهم وأسلوب حياتهم .. شق اسماعيل شوارع النزهة واقام الكبارى الجميلة على النيل ، وبنى فى سرعة غريبة مسرحا للاوبرا واشترى من فردى أوبرا « عايدة » . وعرفت القصور المآدب الكبيرة والحفلات الراقصة والسهرات الحافلة .. وارتفعت قيمة الموسيقى والغناء وظهر المطربون الكبار مثل عبده الحامولى و « المظ » ! ..

وكان ثمن هذا كله يؤخذ من الفلاحين فى صورة ضرائب أو من الاجانب فى صورة قروض .. يدفع فوائدها الفلاحون أيضا ... ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يسجل المعاصرون أنه فى سنة ١٨٧٨ والرخاء والأسراف فى الطبقة الغنية على أشده « انتابت أهل الصعيد سنة شديدة لم يسمع بمثلها منذ أجيال مضت .. فكنت ترى الاطفال والنساء هائمين على وجوههم متنقلين من قرية

الى قرية يستجدون الأكف ليدرأوا غائلة الجوع .. وكثيرا ما حملتهم شدة المسغبة على أن يقتاتوا بفضلات الطعام وقمامة الشوارع ! » . .

ولم يكن ممكنا أن يسكت المصريون بعد ! .. لم يكن ممكنا أن يسكت العمد والاعيان فى الريف وهم يرون فلاحيهم يهلكون ، والحكومة تنتزع منهم الضرائب لتنفق على سفاهتها .. ولا أن يسكت المثقفون الذين أخرجتهم المدارس العليا وهم يرون مناصب الدولة يتولاها الانجليز والفرنسيون .. أو الاتراك !.. ولا أن يسكت تجار المدن وهم يرون الشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وخياطين وصانعى أحذية وصاغة تختفى وتقوم على أطلالها دكاكين مملوءة بالبضائع الاوروبية .. !

بدأ المصريون اذن ينتبهون.. وأخذ الفهم يتسلل الى رءوسهم المثقلة بالدهشة.. وبدأوا يصنعون أشياء جديدة عليهم ..

ظهرت جمعية أدبية اسمها « جمعية المعارف » من كبار الموظفين والاعيان أخذت على عاتقها اعادة طبع التراث القديم : «تاريخ ابن خلدون» و «احياء العلوم» للغزالى .. و «الاغانى» و « نفح الطيب ! » ..

وظهرت المطابع الاهلية : « المطبعة الوطنية » فى الاسكندرية و « المطبعة القبطية » فى بولاق .. ومطبعة « وادى النيل » . .

وبدأ « محمد بك عثمان جلال » يترجم القصص الغربية .. بل ويمصر بعضها ، كما فعل بمسرحية « طرطوف » لموليير اذ عربها باسم « الشيخ متلوف ! » ...

وبدأت فرق التمثيل تجىء من سوريا ولبنان لتمثل على مسرح الاوبرا ومسرح الازبكية .. فلما مثل « يوسف خياط » مع فرقته رواية « المظلوم » على مسرح الاوبرا .. رحب به اسماعيل أول الامر لانه يريد أن تكون فى مصر فرق تمثيلية .. فلما شهد روايتها ووجد أنها تشتم الظلم والظالمين طردها من مصر ..

وظهرت الصحافة السياسية المعارضة لاول مرة ..

وظهرت « وادى النيل » لصاحبها عبد الله أبو السعود .. ثم أغلقت بعد ست سنوات ..

وظهرت « نزهة الافكار » لصاحبيها ابراهيم المويلحى وعثمان جلال .. ليغلقها اسماعيل بعد عددين ..

وظهرت « الوطن » و « مصر » و « التجارة » و « الاخبار » و « كوكب الشرق » و « الاهرام » ..

وفر أحد الصحفيين ـ يعقوب صنوع ـ الى باريس ليوالى اصدار جريدة « أبو نضارة » .. وليدخل الكاريكاتير على يديه لاول مرة فى الصحافة المصرية .. ولتتسرب هذه الصور الى مصر كل أسبوع .

وتمخض هذا التطور عن ظهور الدعوة الى انشاء مجلس نيابى ينتخبه الناس ويشارك الحكومة مسئولية الحكم .. لقد وجد المصريون أنهم منذ نصف قرن تقريبا اختاروا محمد على حاكما عليهم ، وأجلسوه على العرش رغم أنف الباب العالى ، فكان أول عمل له أن نفى زعماء الشعب .. اذن فاختيار الحاكم مرة ليس يكفى !.. اذن فلا بد من أن يظل الشعب بعد ذلك رقيبا .. يجب أن تستمر رقابة الشعب على الحاكم حتى لا يطغى .. وما هى وسيلة الرقابة .. ؟

البرلمان ..

ولم يعارض اسماعيل التيار المطالب بمجلس نيابى .. وقد رأى أن الامر لا يعدو مظهرا آخر يكمل سائر مظاهر أبهته !.. انه كما أنشأ كوبرى قصر النيل ، وأقام دار الاوبرا ، ينشىء مجلسنا نيابيا .. يقف فيه كملوك الغرب يفتتح ، ويخطب ، ويحف به الوزراء ..

وأنشأ اسماعيل مجلسا نيابيا « استشاريا » لا يبدى رأيه الا « فيما يعرض عليه من الامور » فقط !.. واجريت الانتخابات الاولى سنة ١٨٦١ .. ولم يكذب المجلس الاول ظن الخديو ـ ولا الاجانب ـ اذ جاء رده على خطاب العرش حافلا بالسجع والمذلة ، يقول انه قد « نفحتنا النفحات الآلهية ، واسعفتنا العناية الربانية ، بالحضرة الاسماعيلية ! وأعطى القوس باريها » لطفا من الله بهذه الديار ومن فيها ، فتولاها العزيز بن العزيز ، ذلك الجناب الافخم .. » ويشكر الخديو على انه أنشأ « هذا المجلس الانيق !! » نعم .. فقد كانت الاناقة غاية العصر .. :

هذا اذن هو العصر الذى أنضج عبد الله النديم .. وهذا هو

الجو يوم عرف الطريق لاول مرة الى قهوة متاتيا ، وجلس أمام هذا الرجل الافغانى العجيب .. بوجهه الأسمر الجذاب ، و « جبته » وسراويله السوداء .. الذى يأكل مرة واحدة فى اليوم ، ويسهر فى القهوة الى الفجر ، وينام حتى الضحى ، ويشرب الشاى والشيشة باسراف و « يوزع السعوط بيمناه ، والثورة بيسراه » ...

هنا .. على هذه المقاعد البالية عرف كل الشخصيات التى تكمن فيها عوامل الانفجارات المقبلة .. عرف ذلك الفريق الضخم المتزايد من الباشوات والتجار والاعيان والمثقفين الذين كان يطلق عليهم اسم « الحزب الوطنى » واطلع على خبايا الجمعيات السرية التى كانت توزع المنشورات .. وصادق الصحفيين الذين ينفثون السخط ويوجهون الرأى .. فهو يعود هذه المرة الى مسقط رأسه فى الاسكندرية لا ضائعا ولا متصعلكا ، بل ليعمل فى جريدتى « الوطن » و « التجارة » اللتين كان يصدرهما سليم نقاش وأديب اسحق ..

وفى هذه الاثناء تقوى حركة المقاومة وتشتد .. والنواب الذين تحدثوا منذ سنوات عن «العناية الربانية ، والحضرة الاسماعيلية!» يردون على خطاب العرش سنة ١٨٧٩ قائلين مسجلين : « نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ! » ثم يورطون الخديو فيشكرونه على تشكيله مجلس وزارة « مسئول أمام الامة ! » و « حفظا لمصلحة الحكومة وحقوق الرعية ! » ..

وبعد أسبوعين ، تتهرب الحكومة ، كالعادة ، من عرض المسائل المالية على مجلس النواب فيقف محمود بك العطار (شاهبندر التجار) فى المجلس مهاجما رئيس الوزارة « نوبار باشا » : « كيف يخفى على دولتلو رئيس النظار أن للامة المصرية نوابا ! .. كيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيه نوال كمال حريتها وغاية حقوقها ؟ » ..

ويرد نوبار ردا ملتويا ، فيجيبه النائب عبد السلام المويلحى إن كل مملكة وكل حكومة تقدمت كان أساسها اشتراك النواب فى أمثال ذلك » ..

وتتحمس الصحف لهذا الاسلوب الجديد .. وتؤيد أول معارضة علنية للحكام فى مصر .. وتسقط وزارة نوبار باشا

ويؤلف الامير توفيق ولى العهد وزارة جديدة .. ولكن المقاومة تشتد .. وقد اتجه الرأى بين المصريين نهائيا الى ضرورة وضع دستور جديد وتغيير نظام مجلس النواب بحيث تصبح له سلطة حقيقية ..

ويجتمع النواب والزعماء جميعا فى دار السيد البكرى نقيب الاشراف ، وتطلق الصحف على الاجتماع اسم «الجمعية الوطنية» تشبيها له بالجمعية الوطنية التى تزعمت الثورة الفرنسية .. وطالبت « الجمعية الوطنية » بتأليف وزارة وطنية يخرج منها الوزيران الاجنبيان ، وتسوية الديون تسوية معقولة ، وانشاءنظام دستورى ومجلس نيابى ..

واحتجت الدول الاجنبية على وضع دستور للبلاد ! .. ولكن وزارة توفيق بالرغم من ذلك سقطت ، وألف شريف باشا وزارة وطنية ، وانطلقت الوزارة والنواب يضعون ما أصبح أول دستور حديث عرفته مصر ، وقدمه الشعب الى الخديو فى ٢ يونيو ١٨٧٩

وفى ٢٦ يونيو — بعد ٢٤ يوما من انجاز الدستور ، وقبل أن يصدر به المرسوم ! — خلعت انجلترا وفرنسا اسماعيل عن عرش مصر ، عقابا له على هذه الاستجابة الاخيرة لضغط الشعب ! ..
الى هذا الحد لم تصبر انجلترا التى تعمل لاستعمار مصر .. لم تصبر على أن يكون لمصر دستور ، ولا على أن يكون الحكم فى مصر للمصريين .. ذلك أنها تعرف العاقبة جيدا !!..

ولم يكد توفيق يستقر على مقعده حتى استدعى اليه فى القصر جمال الدين الافغانى الذى كان مسئولا عن هذه المقاومة كلها الى حد بعيد ، وسأله الرأى .. فقال له الفيلسوف : « ان قبلتم نصحى .. أسرعتم الى اشراك الامة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الامة تسن القوانين وتنفذها .. » .

ويرفض توفيق — طبعا — بمشورة من الانجليز ، فحكم الشعب الحقيقى معناه طرد المتطفلين وحصر نشاط الاجانب فى النطاق المشروع .. وينشىء الافغانى أول حزب فى مصر : الحزب الوطنى الحر .. حزب سرى يوزع المنشورات ويدعو الى حكم الشعب نفسه بنفسه .. ويدخل النديم هذا الحزب الاول مع الآخرين .. من الكبار مثل شريف باشا وسلطان باشا الى الصغار مثل سعد زغلول .. وتطارد الحكومة المنشورات ..

وينهض الافغانى آخر ليلة من لياليه ، تاركا قهوة متاتيا عائدا الى بيته وليس معه سوى خادمه « أبو تراب » وفى الطـــريق المظلم يعترضه الجنود ، ويقبضون عليه ، ويسوقونه الى « الحجـز » ويبيت ليلة على البلاط مع اللصوص والساقطين ، وفى الصباح يوضع فى عـــربة مقفلة الى محطـــة السكك الحديدية ، ثم الى السويس منفيا من مصر .. لم يذهب الى بيته ولم يجمع ثيابه .. وصدر فى الصباح بلاغ يبرر نفيه بأنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا !! » ..

ويتمزق الحزب .. ويعود النديم الى جمعية سرية أخـــرى اسمها « مصر الفتاة » يعمل فيها زمنا .. ثم هو ينشىء جمعية علنية يسميها « الجمعية الخيرية الاسلامية » وينشىء للجمعية مدرسة ..

وفى المدرسة يبذل نشاطا عجيبا .. هو يعلم الطلبة الخطابة والالقاء .. ويعقد لذلك الحفـــلات التى تزدحم بأهالى المدينة ، يقوم فيها خطيبـــا ويتعاقب بعده تلاميذه .. ثم يؤلف روايات تمثيلية يمثلها مع تلاميذه على مسرح « زيزينيا » منهـــا رواية « الوطن » ورواية « العرب » ..

ولكن الجمعية تنشق ، ويجتمع الاعضاء ويفصلون النـــديم ، لاسباب مجهولة التفاصيل .. فماذا يصنع ؟ ..

يصدر مجلة ..

الآن يبدأ تاريخه الحقيقى .. وقد أصبح رجلا فى الســـادسة والثلاثين .. رجلا اكتمل له فهم الشعب المصرى كما لم يفهمه احد قط : خدم فى القصور الملكية وعند عمد الارياف .. مارس التجارة وساجل الادباتية .. عـــرف غرز الحشيش ومجالس الفلاسفة .. عمل فى الصحافة ، وفى الجمعيات السرية .. وقف على المنبر خطيبا وعلى خشبة المسرح ممثلا .. ونفسه الحساسة الذكية لا تترك شاردة .. ففى هذا الكيان تنبض مشاعر شعب .. الشعب كما رآه النديم من زاويته الحقيقية : عماله وفلاحوه وشـــبابه المثقف .. لا كما كان يراه النـــاس : باشوات واتراك وشراكسة ..

وبكل هذا الفهم ، وبكل هذا الاحساس ، يصدر مجلة يسميها : « التنكيت والتبكيت » .. والاسم هو أول توفيق فيها : فمن

زاوية الفكاهة والسخرية اذن سيشير الى العيوب والادواء .. بأسلوب « التنكيت » القريب من قلوب المصريين ، سيصل النديم الى « تبكيتهم » وتأنيبهم وايقاظهم ..

هذه المجلة ، مجلة فريدة فى تاريخ الصحافة المصرية كلها .. ولنستعرض العدد الاول منها مثلا .. ان فيه مقالات وقصصا للخاصة مكتوبة باللغة العربية الفصيحة ، وفيه قصص باللغة العامية للآخرين ، القريبين من قلب النديم .. وأسلوبه فى معالجة كل المشاكل أسلوب قصصى ، وهذا توفيق آخر فى الاقتراب الى أفهام العامة وأبناء الشوارع والحوارى ..

ولكن .. ان تقديم نماذج من مواضيعها أبلغ من كل بيان :

اليك قصة بعنوان « الجنون فنون » يندد فيها بصورة من الصور التى كانت شائعة فى مصر : شعراء الربابة الذين كانوا يطوفون بالمقاهى ويروون قصص حروب « عنترة بن شداد » ضد « الزغبى » ويصرفون الشعب عن مشاكله الواقعية بما يروونه من قصص خرافية ..

يقول النديم بالنص :

« جلس أحد المحتالين على قهوة ، وأخذ يقرأ أكاذيب سماها « قصة عنترة » فاجتمع عليه عدد كبير من الرعاع والهمج الذين أولعوا بسماع الاكاذيب والخرافات ، فلما رآهم منصتين اليه أخذ يفترى عبارات ينسبها الى عنترة وكلمات يعزوها الى « زغبه » ، وقد انقسم القوم فريقين ، وكل فريق يدفع لهذا المحتال نقودا ليؤيد مشربه ويمتدح من يميل اليه .. والمحتال مجد فى التخريف متفنن فى الكذب ، حتى قرب الفجر ، فقال :

« وبينما هم فى قتال ونزال ، انكشف الغبار عن أسر عنترة ، وسنخلصه فى الليلة المقبلة » ..

فقال أحد السامعين : لا بد أن تخلصه الآن .. وخذ عشرة جنيهات .. !

فأبى المحتال وسكت عن الكلام ، فشتمه السامع وعلت أصواتهما بالقبائح ، وآل الامر الى الضرب والاهانة ..

ثم ذهب السامع وقد تذكر أن عنده قصة عنترة ، ولكنه أمى لا يقرأ ، فقصد الى غرفة ولده وأيقظه من النوم وهو يبكى وقال

له : يا ولدى ، أبوك رزىء بمصيبة عظيمة .

فقال له ولده : هل مات أخى .. ؟

ـ كان أهون ..

ـ هل صدر عليك حكم بالليمان فى قضيتك .. ؟

ـ كان أهون ..

ـ أسرقت نقودك .. ؟

ـ كان أهون ..

ـ فما الذى أصابك يا والدى .. ؟

ـ يا ولدى ، فى هذه الليلة أخذوا عنترة أسيرا ، فهات كتاب قصة عنترة وخلصه .. والا قتلت نفسى .

ـ من عنترة يا والدى ؟ .. أتتكدر على حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف ؟ وما لنا وعنترة ؟ ان هو الا عبد أسود أخذ شهرة بما صنعه من الشعر وقتل الناس بلا حق لولوعه بالنهب ..

فقال الوالد : أنت تشتم عنترة يا بن الـ ..

ونزل عليه بعصاه حتى أسال دمه ، وحلف عليه بالطلاق لا يبيت عنده ولا يعاشره .. فخرج الولد المسكين وهو يسب الجهل وأهله ، ويعجب من فساد أخلاق والده الذى أحدثه عدم التهذيب حتى ألحقه بالبهائم وسلخ عنه جلد الانسانية ..

فقابله احد جيرانه وسأله عن حاله ، فقص عليه قصته مع والده ..

فقال له : طالما قلت لابيك « فضك » من عنترة ، وتعال اعمل « زغبى » فما سمع كلامى !!..

فضحك الولد من سخافة عقل الاثنين ، وقال : لا شك أن الجنون فنون ..

هذه القصة الفكهة ، أو النكتة الطويلة تعطى صورة كاريكاتيرية رائعة لجو مقهى مصرى فى ذلك العصر ، ودعوة لاذعة الى رواد المقهى لكى يتنبهوا ويتركوا هذا اللغو والضياع .

ثم قصة أخرى أشد تقريعا فى نفس العدد ، عن انتشار

الحشيش ، عنوانها « سهرة الانطاع » .. وقد ابتكر فيها النديم شخصية كشخصيات « المصرى أفندى » وغيرها .. شخصية استعملها فى قصص كثيرة وسمى صاحبها « المهذب » .. قال :

« دخل أحد المهذبين بيتا من بيوت رجال الملاهى فوجد عشرة من الرجال جالسين على الاسرة ، مبهوتين، ساكتين ، لا يتكلمون ولا يتحركون ولا يرفعون أبصارهم .. هـذا واضع عنقه على كتفه » وذا « مكفى » على المخدة ، وذاك يتمايل كالنائم ، وآخر واضع يديه على خديه .. فظن المهذب أن رب الدار أصيب بمصيبة وهؤلاء متكدرون مما أصابه ومشفقون عليه ، فجلس فى ناحية من المجلس وسأل رب الدار قائلا : لعلكم بخير .. هل من أمر نزل بالسيد حفظه الله ..؟

قال : لا .. ولكن عادتنا أن نجتمع كل ليلة للانس والمفاكهة ..

المهذب : أظنكم تتذاكرون فى تقدم صنائع أوروبا وانتشار تجارتها فى سائر الاقطار حتى عظمت ثروتها وتقوت شوكتها ..؟

رب الدار : مالنا علم بأوروبا ولا أهلها .. فاننا ما خرجنا من مصر مدة حياتنا ..

المهذب : عدم الخروج من البلاد ليس شرطا فى وقوف الانسان على أحاديث الامم ونحن جلوس فى بيوتنا ..

رب الدار : التواريخ لا يقرأها الا العلماء ، والصحف لا يسأل عنها الا الخواجات ، فانها عبارة عن حكاية يتسلى بها الشبان ..

المهذب : الصحف يا سيدى ألسنة الامم وترجمان الملوك .. تنقل لك ما قاله هذا الرئيس وهو فى اقصى الغرب وما أجاب به هذا الامير وهو فى أطراف الشرق .. وتخبرك بالمحاورات السياسية وأغراض الملوك وأحوال الامم وسير التجارة ، وأعمال العقلاء وصنائع العلماء وخطب النبهاء وتاريخ الاذكياء .. وما قامت به هذه الامة حتى خاتلها الغريب وتداخل فى شأنها وحجر على أهلها عوائدهم ومذاهبهم ..

رب الدار : هـذا شىء يوجب وجع الدماغ ويشتت الفكر ، ولا يشتغل به الا من ليس له شغل ..!

المهذب : أظنكم اذن تتحدثون فى شئونكم وتتذاكرون فى أشغالكم لعلكم تهتدون لامر يزيد فى الثروة أكثر مما انتم عليه ، لتفاخر بكم

حكومتكم وتكافئكم على أتعـــابكم واجتهادكم بالرتب العـــالية والعلامات الشريفة ..

رب الدار : هذا أمر لا يهمنا ، فان البلاد اذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئا أحسن مما نحن فيه ..

المهذب : وما هو الذى وصلتم اليه يا سيدى من التقدم ؟ ..

رب الدار : لله الحمد .. كل منا له بيت عظيم بحوش واسـع ومضيفة لطيفة .. وعنده من الخدم ما يقوم بادارة أشغاله ، وقد تركت لنا آباؤنا أموالا لا تفنيها الايام .. فنحن فى نعمة عظيمة .. نرى المسكين من الناس يقوم فى الفجـــر لاشغاله ، ويبيت يكتب ويحسب ، ونحن لا نخرج من البيوت الا قبل الظهر ونعود اليها وقت العصر للمسامرة والمضحكات والنكات اللطيفة ..

المهذب : اذا كانت هـــذه عادتكم ، فلم تجتمعون فى هـــذه السهرة ؟ ..

رب الدار : عادة « الكيف » انه لا يفرح الا اذا تعاطاه الانسان فى مجلس انس يضحك ويلعب .. فنحن نجتمع ليتعاطى كل منا « منزوله » ثم تدور النــكتة بيننــــا ، فاذا « ونن » الانســـان و « خدر » قام ودخل محل النوم حسب العادة ، فيبيت مبسوطا لا يسأل عن الدنيا ولا من فيها ..

ثم التفت الى أقرانه وقال : رأيكم ايه يا أســـيادنا فى هــذه العبارة .. ؟

فأجاب الجميع بصوت واحد : مفيش غير كده ! احنـــا مالنا ومال الدنيـــا والتجارة والتواريخ .. احنـــا رايحين نبقى زى الافرنج اللى كل ساعة يقولوا الدنيا جرى فيها ايه .. والجرانيل قالت ايه .. والتلغرافات عادت ايه .. زى اللى الدنيـــا ملكهم ها ها هع !! .. » .

على أن أروع ما فى هذا العدد الاول من مجلة «التنكيت» قصة بعنوان « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » . أراد النديم أن يروى فيها قصة مصر التى فتحت أبوابها للمرابين فافتقرت وافلست ، فاضطرت للاستغاثة بالفنيين الاجانب والوصـــاية الاوربية على الميزانية المصرية مما زاد فى مرضها وافلاسها .. ولم يكن مباحا للصحف أن تقول ذلك بصراحة ، فروى قصة رمزية عن شاب قوى جميل ذكى كان فى منعة من أهله وذويه . ثم تسلل اليه محتال

تظاهر بالتقى والنية الطيبة حتى استولى على مشاعره ، ثم أخذ يغريه بالنساء ويعرض عليه الغوانى الجميلات حتى وقع في الخطيئة ثم أسرف فيها حتى أصيب بمرض « خبيث » فضعف وهزل ومرض .. والتف حوله الاطباء يبحثون له عن علاج .. وملأ القصة اشارات الى حقيقة الموقف فى مصر ..

وقد ساعده على ذلك أن مرض « الزهرى » كان عامة الناس يسمونه فى ذلك الوقت « الافرنجى ! » ..

والى جانب ذلك مجموعة أخرى من القصص .. قصة عن المصري الذى يسافر الى أوروبا فيعود متنكرا لاهله وأصله ولغته وقصة عن الاغنياء الذين يقتنون الكتب للتظاهر لا للقراءة ..

هذه المجلة عمل نادر فى تاريخ الصحافة المصرية ! .. حررها من الغلاف الى الغلاف رجل واحد.. ان أى مؤرخ يريد أن يعرف شيئا عن حقيقة الحياة الشعبية فى مصر فى ذلك الوقت لن يجد وثيقة أصدق من اعداد مجلة « التنكيت والتبكيت » .. والقارىء لحكاياتها البسيطة يجد فى كل سطر خلجة من خلجات المصريين.. عامة المصريين ..

شيء آخر تدل عليه هذه المجلة : كان كل الدعاة والمفكرين فى ذلك الوقت يوجهون كلامهم وعنايتهم الى الطبقات المثقفة القادرة التى كانت تتزعم الحركات السياسية .. عبد الله النديم وحده تقريبا هو الذى كان يوجه الخطاب الى أبناء طبقته .. الذين لعبوا فى الطين أطفالا وعاشوا بقية أيامهم يكدحون ..

⊙❖⊙

وفى هذه الاثناء كانت الثورة العرابية قد هبت أعاصيرها .. فشلت كل الجهود السلمية من كتابة عرائض وتوزيع منشورات واصدار صحف .. فشل كل ذلك فى ايقاف التدخل الاجنبى المتزايد .. كما فشل فى اقناع الخديو توفيق باعادة الحياة النيابية كوسيلة للاصلاح المطرد المستقر ..

وبالرغم من أن الناس فى مصر حتى ذلك الوقت لم يعرفوا من الحياة النيابية الا المجلس الهزيل ذا السلطات التافهة الذى انعقد فى أواخر عهد اسماعيل .. الا أن هذه التجربة كانت كافية لان يتعلقوا به ويصروا عليه ، فقد وجدوا أن النظام النيابى

ـ مهما كانت سيئاته ونواحي نقصه ـ خير من كل أنواع الاستبداد ..

وقابل توفيق هذه الدعوة المتصاعدة بالشدة .. فقد رأينا كيف نفى الافغانى . وألغى الصحف الحرة وحرم الاجتماعات .. ثم اندفع بعجلة الاستبداد الى الجيش ، فأصدر بعض القرارات التى تؤدى فى النهاية الى حرمان الضباط المصريين من الترقية وقصرها على الشراكسة والاتراك ..

واجتمع الضباط فى بيت عرابى ، وقرروا تقديم عريضة الى رياض باشا رئيس الوزراء يطلبون فيها تعديل القوانين العسكرية وزيادة قوة الجيش وتشكيل مجلس نيابى ..

وفى ٣١ يناير ١٨٨١ ، يتلقى عرابى وزميلاه عبد العال حلمى وعلى فهمى دعوة للذهاب الى ثكنات قصر النيل للتداول مع وزير الحربية فى « ترتيب الاحتفال بزفاف الاميرة جميلة هانم أخت الخديو » .. ولا يكاد الضباط الثلاثة يجتازون باب الثكنات حتى يهجم عليهم الشراكسة يجردونهم من السلاح ، واذا بهم أمام مجلس عسكرى منعقد لمحاكمتهم .. وكانوا قد احتاطوا للامر فأحضروا بعض اخوانهم وقفوا فى الخارج يراقبون ، فلما عرفوا ما حدث أسرعوا الى وحداتهم ، وهب البكباشى محمد عبيد فى « الالاى الاول » يعتقل قائده فى حجرة ، ثم يقود جنوده الى الثكنات ويحاصرها .. وفى اللحظة التى يقتحم فيها الجنود المصريون الابواب ، يقفز الضباط الشراكسة من النوافذ ، هاربين بجلودهم ، وأولهم وزير الحربية عثمان رفقى ..

وخرج عثمان رفقى ، وعين البارودى وزيرا للحربية ، وسجلت الثورة أول انتصاراتها ..

ومضت الايام وبلغت الثورة أوجها .. وفى الساعة الرابعة عصر يوم من سبتمبر وقف عرابى على رأس الجيش المصرى فى ساحة عابدين . ووقف أمامه توفيق ووراءه ثلاثة من الانجليز : أوكلن كلفن المراقب المالى وكوكسن قنصل انجلترا فى مصر والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية .. وتحت ابصار الآلاف المواطنين الذين احتشدوا خلف الجيش .. الرجال والاولاد و النساء على أكتافهن الاطفال .. تحت أبصار هؤلاء جميعا دار الحوار التاريخى :

ـ ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ..؟

ــ جئنا يا مولاى نعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة ..

ــ وما هى هذه الطلبات ..

ــ هى اسقاط الحكومة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الاوروبى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

ــ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا ..

ــ لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فو الله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

ويخضع الخديو . ويؤلف شريف باشا الوزارة ، ولا يكاد يجلس فى مقعده ، حتى يتلقى عريضة عليها ١٦٠٠ توقيع للاعيان المصريين يطلبون فيها الحياة النيابية وقد استهلوا هذه العريضة التاريخية بقولهم : « لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون الانسان آمنا على نفسه وماله ، حرا فى أفكاره وأعماله ، وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة ، اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس من نبهاء أهلها ، ينوبون عنها فى حفظ حقوقها » ..

وتجرى الانتخابات فى ديسمبر من نفس السنة ..

ويسقط المجلس النيابى الجديد وزارة شريف،ويؤلف البارودى الوزارة ..

ويصدر دستور الثورة العرابية فى ٧ فبراير ١٨٨٢ ، ويبدأ مجلس شورى القوانين فى ممارسة عمله ..

فأين النديم من هذه الدوامة الهائلة ..؟

انه لا يكاد يجد الجد ، وتصبح الثورة حقيقة واقعة ، حتى يغلق « التنكيت والتبكيت » فى الاسكندرية ، ويأتى الى القاهرة ويصدر فيها مجلة أخرى يختار لها عرابى اسم « الطائف » .. ويندمج بسرعة شديدة فى بيئة الثورة ، وتتوثق صلته بزعمائها ، فلا يلبث أن يصبح لسانها الناطق ، وأن يحمل لقبه التاريخى : خطيب الثورة العرابية .. !

فالثورة ـ منذ واقعة قصر النيل ـ قد انحصرت تماما فى الصراع حول الدستور .. الوطنيون يطالبون به ويسعون لتحقيقه . ولكن العقبات كثيرة : هناك الدسائس الاجنبية ، والخديو الذى يحرص على استبداده ، والضباط الشراكسة والاتراك ، والاموال الاوربية القابضة على زمام الاقتصاد المصرى .. ثم هناك الخيانات .. !

فبأى شىء يواجه الزعماء هؤلاء الخصوم .. ؟

لا شىء الا أن يوقظوا الوعى العام فى مصر ويكتلوه حول الدستور والبرلمان .. فهذا الوعى الشعبى هو الجدار الذى يسندون اليه ظهورهم .. فمن لهذه الدعاية وليس فى البلد جهاز دعاية منظم أو غير منظم ؟ .. من يقوم بالدور الخطير الذى تقوم به الان الصحافة والاذاعة والسينما جميعا ؟ .. لا أحد الا النديم ، هذا الخبير بالمصريين .. ابن البلد الحقيقى الادبانى والممثل والصحفى والخطيب ...

وانطلق عبد الله النديم يعمل ..

مجلته « الطائف » تفيض بالدفاع عن الدستور والدعوة الى الحياة النيابية ، وتشن الحملات الهائلة على جرائم اسماعيل وعلى النفوذ الاجنبى السياسى والاقتصادى .. ولما ينعقد مجلس شورى النواب ، يرسل رئيسه محمد سلطان باشا خطابا الى ادارة المطبوعات يعلن فيه أن « الطائف » هى لسان حال النواب الوطنيين .. على أن ادارة المطبوعات بالرغم من ذلك لاتجد بدا من أن تقرر تعطيل « الطائف » شهرا .. ذلك أن النديم لا يقف فى حملاته عند حد .. ففى الوقت الذى يحاول فيه الزعماء مجاملة الخديو توفيق وعدم مجابهته بالخصام ، لا يتحرج النديم هذا الثورى الحقيقى ، بل هذا الجمهورى فى الواقع ، لا يتحرج عن شن الحملات عليه مباشرة ، يريد الاطاحة بالعرش كله .. وهو فى المسألة الداخلية لايقف فى حملاته عند حد الدستور والحياة النيابية فقط ؛ ولكنه يسبق عصره ويتحدث أيضا عن العدالة الاجتماعية .. يندد بالفقر المحيط بالفلاحين ، والسخرة المهينة ، والضرب بالكرباج .. ويجتر كل ما اختزنه فى أيام صعلكته فاليوم يستطيع أن ينفث كل ما خامر نفسه من خواطر ، وما لذع قلبه من آلام .

ولا يمر عليه يوم الا يلقى فيه ثلاث خطب أو أربعا .. فى الشوارع والسرادقات .. فى المدن والبنادر والقرى ، تاجج جلها

مع العمال والفلاحين والبسطاء ، يفتح لهم قلبه ، ويهز أكتافهم ويعلمهم الكلمات .. مستعينا بكل تجارب حياته بينهم ، وذاكرته الحساسة التى تلتقط طباعهم وتدرك أمزجتهم ، مستخدما كل ادوات التمثيل والتهريج والالقاء .. ثم هو لا يكتفى بنفسه ، فيجمع تلاميذه الذين يعلمهم الخطابة ويجعل منهم « فرقة دعاية » لا نظير لها .. تطوف معه بالاقاليم ، لتساعده فى نشر الدعوة .. أليست هذه أول حملة دعاية .. عرفتها مصر ... ؟

وليس أدل على نشاطه العجيب من أنه ــ مثلا ــ فى حفلة اقيمت بمناسبة صدور الدستور ، ألقى خمس خطب ! .. ويوم اشترط شريف باشا أن يسافر عرابى وزميلاه وجنودهم الى جهات متفرقة من القطر .. واقيمت احتفالات هائلة توديعا لكل قائد مسافر مع فرقته .. ركب القطار مع فرقة عبد العال حلمى وسافر معها الى دمياط .. وفى كل محطة يقف القطار ويتجمع الناس ويلقى فيهم عبد الله النديم خطابا طويلا ، ويردد على أسماع الفلاحين لاول مرة كلمات الحرية والاخاء والعدل ، ويصيح فيهم والقطار يتحرك « أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط ! اجعلوا عروة الود وثيقة .. لا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم فى أحكامه ! » .. فاذا وصل القطار الى غايته ، أسرع عائدا الى القاهرة ، ليسافر مع فرقة عرابى الذاهبة الى الزقازيق ، فى رحلة مشابهة .. وهكذا ..

حتى الافراح .. لم يترك فرصتها ، وصار المعازيم فى الافراح يسمعون وصلة من الغناء ثم خطبة من النديم .. !

وفى اللحظات الحرجة ، تكون له قيادة الجماهير والسيطرة فى الشوارع .. جاء أسطول مشترك من الانجليز والفرنسيين الى الاسكندرية .. وقدم وزيرا انجلترا وفرنسا الى الخديو مذكرة مشتركة يطلبان فيها ابعاد عرابى عن مصر ونفى زميليه على فهمى وعبد العال حلمى داخل البلاد واسقاط وزارة البارودى .. اوروبا تتدخل فالثورة فى حاجة الى تأييد شعبى .. ويسرع النديم الى الازهر فيشعله حماسة فى مناصرة الثورة ، حتى يفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو .. ثم يطير الى الاسكندرية يخطب فى الشوارع وينظم المظاهرات الشعبية التى تهتف : ابعدوا السفن الاجنبية .. ويجوب الحوارى والازقة التى نشأ فيها ، والتى باتت تحت رحمة مدافع الاساطيل الانجليزية ، يعلم النساء

والاطفال والرجال نشيدا يرددونه .. واحد يهتف : اللايحة (١) اللايحة .. فيردون عليه : مرفوضة مرفوضة .. !!

ويشهد الاجانب فى الاسكندرية منظرا عجيبا ... النساء فى النوافذ يهتفن : اللايحة اللايحة .. والجماهير فى الشوارع تردد : مرفوضة مرفوضة .. !!

ولكن .. بعد شهرين من هذه الحملة تنطلق مدافع الاسطول الانجليزى تدك كل عزيز عليه .. تمزق جماهيره الهاتفة ، وتحطم البيوت التى طاف بها ، وتشعل النيران فى الحوارى التى لعب فى ترابها ..

⊙❖⊙

أتذكر – أيها القارىء – حريق القاهرة .. ؟

أتذكر كيف دبر الانجليز والخونة المحليون هذه المؤامرة لبث الفوضى ولاتخاذ الحوادث الدامية ذريعة للتدخل وايقاف النشاط الوطنى فى القنال ..؟

أتذكر كيف تراخى البوليس – لسبب مجهول – عن حفظ الامن ، واشترك بعض أفراده فى الاخلال به ، ومنع الجيش من النزول الى الشوارع الا فى ساعة متأخرة ، بعد أن احترقت المدينة

لم تكن هذه خطة جديدة .. قد صنعها الانجليز والخديو لتدبير « مذبحة الاسكندرية » سنة ١٨٨٢ لتبرير الغزو .. ولا أثقل عليك بالأدلة .. اقرأ فقط نص كلام المؤرخ روذستين « ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الاولى بعد الظهر واستمرت الى حوالى الساعة الخامسة .. حدث ذلك كله ورجال البوليس كانوا تارة لايفعلون شيئا وتارة يشتركون فى الفتك والتدمير .. أما عمر لطفى (محافظ المدينة) فكان فى أثناء ذلك قد استحوذ على محل التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ، ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء عن الفتنة الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وحتى فى هذه الساعة أمره بأن يقود الجنود عزلا من السلاح !! » .

وفى منفاه كتب محمد عبده مرة يقول « ان أكثر من قبض عليهم

(١) أى المذكرة الانجليزية الفرنسية.

بعد الحادث بيوم كانوا يقولون : « لا لوم علينا فان سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق !! » .

لكأننا نقرأ قصة ٢٦ يناير .. !

وأراد الانجليز أن يلصقوا التهمة بأحد .. فاتجه تفكيرهم الى من كان يقود الجماهير منذ قليل .. فأرسل لورد جرانفيل الى قنصل انجلترا يقول « أطلب اليك أن تتخذ الخطوات التى تؤيد هذا الدليل وبخاصة مسلك النديم ووكلاء عرابى » .

وكان توفيق قد لاذ قبل ذلك بقصور الاسكندرية ، ليكون تحت حراسة مدافع الأسطول المصوبة الى رعيته .. ونشبت الحرب ..

بدأت الحرب فى كفر الدوار ، ودارت معها حرب منشورات : النديم يكتب المنشورات ويوزعها على الاهالى معلنا خيانة الخديو داعيا الى تأييد عرابى ، وفى الناحية المقابلة عملاء الخديو يكتبون نشرات خيانة عرابى ..

وانتقلت المعركة الى التل الكبير بعد أن اخترق الانجليز قناة السويس .. والتهبت حماسة النديم وتزايد نشاطه بشكل منقطع النظير .. يطوف بالاقاليم مستفزا الناس للتطوع ، داعيا الى التبرع بالطعام والثياب والسلاح للجيش الذى ذهب بلا طعام ولا ثياب ولا سلاح .. مؤكدا للناس أن النصر أكيد .. ونقل مجلته « الطائف » الى جبهة القتال ، يصدرها هناك فى ورقة واحدة .. وكنت تراه فى كل مكان .. يحمس الجنود وهم يتدربون فى قلب الخنادق ، يخطب فى الفلاحين الذين يحفرون ، وحول النار فى الليل لا يكف عن الكلام وتأكيد الانتصار .. مساهما مع الناس فى اطلاق الاناشيد :

يا مولانا يا عزيز ..

اهلك عسكر الانجليز .. !

وانهزم عرابى فى التل الكبير .. هزمته رشوة البدو .. وانضمام الجبناء من رفاقه الى الخديو ، وخيانة الضباط الشراكسة ، والفتاوى التى جاءت من علماء الدين فى استانبول — تقول ان عرابى كافر .. !

كتب « أحمد سمير أفندى » صديق النديم الحميم يقول :

« فلما وقعت تلك الالعوبة المبكية المسماة بواقعة التـــل الكبير ، فر عرابى وأخوه وعلى الروبى والنديم وقت السحر فحضروا الى القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر .. وقصدوا فى الحال الى قصر النيل مركز نظارة الحربية اذ ذاك ، وكنت هنـاك وقتهـا فرأيتهم فى منظر لا يسر .. وقصدت النديم واستخبرته الخبـر فأخبرنى أن الانجليز استولوا على التل الكبير ولم يزد على ذلك شيئا .. ثم ركب ومعهم صاحب لهم فى عربة وتبعتهما بعد قليل الى بيته فلن أتمكن من رؤيته ، لانى صادفت بالباب من أخبرنى انه لايريد أن يقابل أحدا الا غدا حيث يكون قد ارتاح من تعب السفر »

انتهت الثورة اذن .. ودخل الانجليز القاهرة التى اغلقت على أبطال الثورة كالمصيدة .. وفى أيام بات كل من لعبـــوا دورا فى الخيانة سادة ، وكل من لعبوا أدوار البطولة فى قاع السجون .. ولكن ، أين النديم ؟ .. اين ذلك الشيطان المريد ذو اللسان الطويل الذى نعت توفيق بأقذع النعوت وشن عليه أعنف الحمـــلات ؟ أين هذا الثورى الخطير ليحاسب على ما قال لسانه وما خطت يداه .. ؟

لقد انفرد النديم دون جميع الذين ساهموا فى أحداث الثورة بمصير لم يشـــاركه فيـــه أحد على الاطلاق .. فهو الذى تعود الصعلكة ثم الحركة الخاطفة لايمكن أن يطيق السجن .. وهو أيضا لا يتصور النفى .. انه قطعة من طين هذا البلد ، جذوره عميقة فى أرضه ، انه لا يعيش فى المنفى الا اذا عاشت السمكة خارج الماء .. وعلى ذلك قرر أن يختفى .. وأن يواجه اعجب فترة فى تاريخ حياته العجيبة : تسع سنوات من حياة الاختفاء والمغـــامرات .. خلفه رجال الحكومة ينقبون ، وجائزة ألف جنيه لمن يأتى به حيـا أو ميتا ...!

خرج من بيته لا يصحبه الا خادم له ، وأوى الى بيت صـديق له فى بولاق ، يختفى فيه ريثما يدبر أمره .. وبعـد عشرة أيام ، خرج من هذا البيت رجل غريب الهيئة قد لبس « زعبوطا » أحمر ، وعمامة ضخمة حمراء .. على عينيه منديل كبير ، وفى يمناه عكاز عتيق يتوكأ عليه ، وقد طالت لحيته وابيضت أطرافها التى تكاد تضرب على صدره .. وخلفه خادم يحمل بعض الزاد الخفيف ، ويقول للناس ان « سيده » شيخ من مشايخ الطرق الصوفية .. وسار الاثنان يتعثران الى ساحل النيل فى بولاق ..

هكذا خرج عبد الله النديم يواجه حيـــاته الجديدة .. الان سيحتاج خطيب الثورة الشهير الى كل مواهب « الادباتى » القديم .. الى كل درايته بالناس ليكسب ثقتهم ، وبراعتـــه فى التقليد لخداعهم .. هذه الحياة الشعبية الحافلة بالجهـــل والخرافات والتى ثار ليغيرها ، عليه الآن أن يعود اليها ، ويذوب فيها ..

وعند ساحل بولاق ، ركب النديم وخادمه ســفينة نيلية الى بلدة قريبة من المنصورة اسمها (ميت الغرقا) حيث نزل فى ضيافة صديق قديم له من أعيان البلدة.. وبعد أيام من مقامه فى البلد انهارت أعصاب خادمه ، واستبد به الخوف ، وأراد أن يتــركه عائدا الى أهله .. وخشى النديم اذا تركه أن يدل عليه .. فلجأ الى الحيلة .. واحضر جريدة «الوقائع المصرية» وقرأ فيها قليلا ــ وكان الخادم أميا ــ ثم أظهر أنه فزع فجأة ، وضرب كفا بكف .. وسأله الخادم ما الخبر فقال له : «لقد جعلت الحكومة ألف جنيه لمن يرشد عنى ، وخمسة آلاف جنيه لمن يأتيها برأسك ! » فارتعد الخادم ، وأصبح من يومها أكثر اهتماما بالاختفاء من سيده .. وظل كذلك طوال تسع سنوات .. !

وبعد أن قضى سنة فى « ميت الغرقا » خشى مضيفه أن يفتضح الامر فأرسله الى صديق له هـــو الشيخ محمد الهمشرى عمدة « العتوة » فى مديرية الغربية .. وأكرمه الشيخ الهمشرى جدا ، وكتم سره الا عن زوجته ، وبلغ من اكرامه أن زوجه وزوج خادمه

وبعد عام آخر مات الشيخ الهمشرى ، فجاءت زوجته بأكبـــر أولادها وكان شابا لا يتجاوز الخامسة عشرة وقالت له : هذا يا بنى عبد الله النديم الذى جعلت الحكومة لمن يهديها اليه ألف جنيه .. فهل تريد أن تؤويه كما فعل أبوك أو ترغب فى حطام الدنيا فأكون بريئة منك الى يوم الدين ؟ فقال لها الولد : حاشا لله أن أفعل ذلك .. وسترين أنى أحافظ عليه محافظتى على عرضى ..

وفعلا مكث النديم عنده مايقرب من ثلاث سنوات أخــرى .. حتى وشى به عدد من أعداء الاسرة ، فاضطر الى الفرار هو وخادمه وزوجتاهما ليلا ، مجتازين الحقول والقنوات ..

وبعد هاتين الضيافتين الطويلتين لم يعرف النديم استقرارا فى مكان .. وكلما مضت الايام زاد الاختفاء صعوبة ..

وكان فى هذه الاثناء يلجأ الى عشرات من الحيـــل لا يستطيعها

غيره ، فلا يدخل قرية الا وقد ظهر في مظهر جـديد باسم جـديد فهو مرة شيخ من مشايخ الطرق الصوفية .. وهو مرة عالم يمنى اسمه الشيخ يوسف المدنى ، ومرة ثالثة اسمه الشـيخ محمد الفيومى ، ورابعة عالم مغربى اسمه « سى الحاج على المغربى ! » وقد بلغ عدد الاسماء التى انتحلها تسعة .. ثم هو فى كل مرة يغير شكله وهيئته كالمهرج فى الروايات .. مرة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ليبـدو شيخا فانيـا ، ومرة يصبغها بالحناء فيصبح لونها أحمر ، ثم يعود بها الى لونها الاسود مرة ثالثة .. وهى تقصر وتطول حسب الظروف ، وكان هذا الممثل القديم قديرا على أن يرطن بأى الهجة يشاء : مغربية أو سورية أو يمنيـة .. !

وقد حدث له في ظروف كثيرة أن التقى بناس كانوا يعرفونه قبل الاختفاء ، فلم يعرفوه .. كتب صديقه أحمد سمير أفندى ان عبد الله النديم أخبره بعد ذلك « انه اجتمع بالمرحوم مصطفى صبحى باشا مدير الغربية في الكوم الطويل وتكلما طويلا ، فقال هذا : لولا علمى أن النديم قد مات وانقضت أيامه لقلت انه هو هذا الرجل بعينه ، ولكن جل من لا شبيه له ! . وانه جلس ليلة على رصيف محطة طنطا ينتظر القطار الذاهب الى كفـر الزيات ... وكانت الحكومة قد أرسلت الجواسيس فى أكثر البلاد للقبض عليه ، فلقيه فريق منهم اشتبهوا فى أمره ، فمازال يحدثهم حتى اعتقـدوا أنه رجل من الصالحين المقربين ، فلما جاء القطار أوصلوه اليه وحملوا عنه أمتعته وظلوا وقوفا الى أن اوشك القطار على التحرك وقبلوا يديه وسألوه الدعاء »

وكان فى محنته هذه يحظى احيانا بأيام صـفاء ، فيعكف على الكتابة والقراءة لايكل ولا يمل .. كتب مرة الى صديق له ـ وهو مختف ـ يقول : « ان سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل اذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والاقدار ، ولا أتألم من طـول المدة ووقع الشدة ، لاعتقادى أن لكل شـدة مدة متى انتهت جفت الاوحال ، وحسنت الحال .. فتراني فكرى كليمى ، وقلمى نديمى .. وقد تم لى الان عشرون مؤلفا بين صغير وكبير ، فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة ، وسيلة للمنحة والمنة » ..

وقد ساعدته على هذا الهدوء حينا حيلة بارعة لجأ اليها .. اذ أوعز الى رجل فرنسى كان صديقا له أيام الثـورة وظل متصلا

به يزوده بالكتب ، أيام الاختفاء .. اوعز اليه فأشاع ان النديم هرب الى « ليفورنو » فى ايطاليا .. ونشرت الصحف النبأ على انه حقيقة ، وثار الوزراء وأنبوا رجال البوليس تأنيبا شديدا .. ثم هدأ البحث عنه .

على أنه قاسى فى هذا الاختفاء ويلات لا حد لها .. وكانت تمر به لحظات شقاء بالغ تعصر فؤاده عصرا ..

يقرأ فى الصحف ــ مثلا ــ ان سلطان باشا وبعض الاعيــان يقدمون الهدايا الى قواد الجيش الانجليزى تقديرا لهم على احتلال مصر .. فيبكى ! .. يجد نفسه أحيانا حبيسا فى حجرة قذرة . يفصــل فى مشاجرات حقــيرة على زاد تافه بين زوجته وزوجة خادمه .. ويســمع للاثنتين صابرا ، هو الذى طاول الملوك ، واشترك فى قيادة ثورة ، وقاوم امبراطورية بأسرها ! أو تقســو عليه زوجته وتسىء معاملته الى حد رهيب ، وهو يتحملها صابرا حتى لا يتركهــا فترشـــد اليه ! أو تجيئه الانباء أن اباه واخوته متشردون فى البلاد تضطهدهم السلطات ولا يسعفهم صديق .. وان كتبه ومؤلفاته التى اجتمعت له بعد جهد دام تسعة عشر عاما سقطت فى النيل . أثناء الهجرة السريعة التى اندفع اليها الاهالى بعد ضرب الاسكندرية .. !

وقد تمر عليه الايام لا يجد طعامه ومن معه .. وقد يختفى الشهر فى حجرة مظلمة تنشع أرضها بالماء ، لان الشرطة فى مكان قريب تبحث عنه .. ولربما تثور نفسه وتتوتر أعصابه وهو على هذه الحال فيلجأ الى الكتابة يفرج بها كربته .. يصنع الحبر من هباب المصباح ، ويكتب فى الضوء الكابى الذى تفوح فيه رائحة الغاز ..

ولكن الناس بعد ذلك كله يحبونه ، ويتلقون هذا المجــاهد الشريد بقلوب كبيرة .. هذا ضابط بوليس يراه فى الدورية وهو يفر فى الحقول ، فيأمر جنود الدورية أن يسبقوه ، ثم يتجه اليه ويقول له : قد عرفتك .. أنت النــديم .. ويظن النديم أنه قد سقط ولكن الضابط يعطيه ثلاثة جنيهات هى كل ما فى جيبه . ويتركه بعد أن يصف له أسهل الطرق ! .. وهذا « محمد معبد » الحلاق فى قرية « شباس الشهداء » يستضيفه ويكتم سره أياما .. والفلاح « أحمد جودة » يسير معه كالدليل فى الحقول المظلمة ليساعده على الفرار من قبضة تلاحقه .. وعشرات من أبناء هذا

الشعب الطيب .. الذين من أجلهم ثار النديم ، ومن أجلهم يختفى ومن أجلهم يتشبث بالحياة .. !

وكانت آخر قرية دخلها متخفياً هى « الجميزه » فلم يلبث فيها أياما حتى حاصرها البوليس ، وألقى القبض عليه .. بعد وشاية من جاسوس استطاع أن يعرف حقيقته .. وأرسل الى نيابة طنطا بعد تسع سنوات من الفرار المتصل ، وأحسن وكيل النيابة « قاسم أمين » معاملته ، حتى تجىء التعليمات الخاصة به من القاهرة ..

وكانت حدة الثورة العرابية قد ذهبت ، وكانت سياسة الاحتلال تعمد الى استرضاء ابطال الثورة القدامى لتخفيف غضب الناس، فأوعزت الى الخديو توفيق فعفا عنه ، بشرط أن يترك مصر الى أى بلد يشاء .. واختار أقرب البلاد الى مصر : يافا الفلسطينية .

ولما هبط من الباخرة فى يافا ، ترقرقت الدموع فى عينية حين وجد جمعا من الناس فى انتظاره يستقبلونه مهللين مرحبين .. فما زال الناس يعرفون جهاده .. وأقام هناك زمنا ..

ثم مات الخديو توفيق وخلفه عباس .. وعفا الخديو الجديد عن عبد الله النديم ، فعاد الى مصر سنة ١٨٩٢ ..

عاد ليجد أزمة سياسية عنيفة بين اللورد كرومر والخديو عباس . وليجد النشاط السياسى خامدا ، والرأى العام ساكنا جامدا والخونة قد تربعوا فى مقاعد الحكم والمتعة ، والانجليز يصولون ويجولون فى البلاد .. بلا معارضة ولا مقاومة ولا أى شىء على الاطلاق ..

هل ضاع الامل فى هذا البلد .. ؟

كلا .. ففى ذات ليلة يطرق باب هذا الثائر القديم شاب نحيل رقيق ، كأنه شاعر عاشق ، يقول انه طالب فى كلية الحقوق ، وان اسمه : مصطفى كامل ! جاء يسأل النديم عن القصة الحقيقية للثورة .. القصة الحقيقية التى لم يكن قد عرفها الناس بعد .. الصورة الحقيقية للابطال الذين يلطخهم الاستعمار وأذنابه الآن بالوحل ..

ويجد النديم بغيته .. فها هو شاب من الجيل الجديد يستطيع

أن يحمل الرسالة .. تلميذ آخر يستطيع أن يبث فيه تعاليمه ، وينفض عليه كل حرارته .. ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعي: ان مصطفي كامل قدتأثر الى حد بعيد بما سمعه وعرفه من زياراته للنديم .. وانه كان حريصا فى حركته الوطنية كل الحرص على أن يتجنب أخطاء الثورة العرابية ..

⊙❖⊙

لقد أوصل النديم الشعلة ، وأبلغ الامانة ..

ولكن هذا الرجل العجيب لا يهمد .. انه يصدر مجلة أخرى باسم « الاستاذ » اسم وقور رزين هذه المرة .. وتبدأ المجلة فى أول أعدادها وقورا أيضا .. باللغة العربية كلهـــا ، فيثور عليه القراء .. ورفاقه القدامى .. فيعود مسرعا الى أيام « التنكيت والتبكيت» نصفها باللغة العربية ونصفها باللغة العامية.. قصص تندد بالخمول والجبن والضعف .. وكل الادواء التى سادت فى ذلك الوقت .. ولكنه ينسى نفسه .. ينسى أن ثمة حدودا وقيودا يجب أن يقف عنـــدها ، وأن أيام الثورة قد ذهبت ، وينطلق مع سجيته الحـــارة فيهاجم الانجليز والاجانب .. ويشــــتد فى حملاته رويدا رويدا ، حتى انقلبت المجـــلة الى ثورة .. وفعلا بدأت الخواطر تهيج ، والطلبة يتحمسون ، والرقود يستيقظون .. وتصرخ جريدة التيمس الانجليزية فى لندن : كيف تتركون هذا الرجل ؟ .. انه سيشعل لكم فى مصر ثورة أخرى ! .. هذا العنيد الذى لا يزال يقاوم وقد استسلم الجميع .. لو تركتموه فسوف يتشجع الآخرون .. وتشتعل النار .. !

وتنشط السلطات جميعا .. الانجليزية والمصرية على السواء .. ويصـــدر الامر باغلاق المجلة . واسكات « الاســـتاذ » ونفى السيد عبد الله النديم ، قبل أن تمر عليه فى وطنه سنة واحدة ..!

وعلى عجل يجمع النديم ثيابه ، مرة أخرى ، ويركب السفينة الى يافا .. وهناك يستدعيه السلطان عبد الحميد الى استانبول !

كان السلطان عبـــد الحميد يسير على خطـــة غريبة ! يجمع الثائرين الذين يثيرون القلائل فى استانبول ليكونوا فى متناول يده .. ويوظفهم فى وظائف اسمية بمرتبات لا بأس بهـــا .. فكذلك صنع بالنديم ..

ويضيق النديم بهذا القفص الذهبى .. من يحارب ؟ .. من

يهاجم ؟ .. الا من مبارز ؟ .. هناك ذلك الشيخ المطمطم « عبد الهادى الصيادى » مستشار الخليفة العثمانى .. والحاكم بأمره فى الامبراطورية التركية كلها ، والرجل الذى تعنو له الجباه فى استانبول ، يصطدم به النديم ، وكما صنع فولتير حين اصطدم بمستشار فريدريك الاكبر فوضع فيه كتابا اسمه « الدكتور اكاكيا » جعله سخرية أوروبا ، ثم فر بجلده من ألمانيا .. كذلك صنع النديم .. وضع فى هذا الرجل الخطير كتابا اسمه « المسامير » قال الذين قرءوه : انه بذىء جدا ! .. ولم يستطع النديم الفرار ، ولكن اصدقاءه استطاعوا أن يهربوا الكتاب حتى لا يقع فى يد الخليفة ..

⊙❖⊙

وبعد ..

من كان يتوهم أن هذا الرجل الذى لا يكل ولا يمل ؛ الذى قاوم الملوك وبات فى كهوف الطين ، يحمل فى صدره جرثومة السل ؟ .

انه هنا .. وهو مستريح ؛ بلا عمل ولا صراع ، يستسلم لمرض السل ..

وفى ١٠ أكتوبر ١٨٩٦ يموت ، فى الرابعة والخمسين فقط !

وخلف النعش الذاهب الى القبر كان يسير شيخ أفغانى عجوز محطم ، كان هذا المحمول فى النعش تلميذا له فى أيام بعيدة .. حين كان يجلس فى القاهرة على قهوة متاتيا يشرب الشيشة و « يوزع السعوط بيمناه ، والثورة بيسراه ! » ..



زواج الشيخ على يوسف



الشيخ على يوسف

انها قضية زواج .. لا غير !

ومع ذلك فقد أقامت مصر وأقعدتها ، وقسمت الرأى العـــام والساسة ، وأهل الرأى ، وعامة الناس ..

وكانت محل كثير من المناورات السياسية الدقيقة التى دارت من وراء ستار .. ذلك أنها كانت صدمة عنيفة للناس فى الكثير من معتقداتهم القديمة عن « الشرف » و « الحسب والنسب ! » وما اليها من أخلاق اجتماعية راسخة ، وضعتها هذه القضية موضع التجربة والتفسير الجديد ! ..

ولم تكن مصر فى ذلك الوقت ــ كما تتصور ــ فارغة البال ، خالية من الهموم ... فقد وقعت قصة الزواج هذه فى ســـنة ١٩٠٤ .. وهى السنة التاريخية التى عقدت فيها انجلترا وفرنسا ما يسمى بـ « الاتفاق الودى » .. وقعت بعد شهرين فقط من هذا الاتفاق الودى الذى بمقتضاه وافقت فرنسا على اطلاق يد انجلترا فى مصر ، مقابل موافقة انجلترا على اطلاق يد فرنسا فى مراكش ! .. صفقة من صفقات تقسيم النفوذ التى ما زالت تعقد بين لندن وواشنجطن وباريس حتى اليوم ! ..

وفى نفس هذه السنة أيضـــا ، كانت مصر قد بدأت تفيق من ذهول الهزيمة وصدمة الاحتلال .. فهى تتحرى الاسباب ، وتتعلم من أخطـــاء العرابيين .. وأخـذت المذاهب السياسية تتباور وتتناقش ويعنف بينها الخصام .. كتمهيد لا بد منه قبل اليقين .. وارتفعت الاصوات منـادية بالمطالب والحلول .. كان أقواها صوت شاب نحيل اسمه مصطفى كامل .. مضى يجوب البـــلاد موقظا الرقود ، صارخا فى الآذان الثقيلة ، مناديا بالجلاء والدستور مؤكدا أن « انشاء مجلس نيابى هو الانشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال .. وسواء كان ذلك سابقا أو لاحقا للتخلص من رق الاحتلال ، فانه الضمان الوحيد والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة » .. !

كانت مصر تتنفس على أبواب يوم جديد وأحداث جديدة .. فبعد سنتين من قصة هذا الزواج يقع حادث دنشواى .. وبعد ثلاث سنوات تتكون الاحزاب لاول مرة منذ عهـــد جمال الدين الافغانى .. تتكون ثلاثة أحـــزاب فى خلال ستة شهور : الحزب الوطنى ويرأسه مصطفى باشا كامل .. وحزب الامة ويرأسه محمود

باشا سليمان .. وحزب الاصلاح الدستورى ويرأسه الشيخ على يوسف ، بطل قصة الزواج .. !

في هذا الجو الحافل بالنذر .. انفجرت قضية الزواج ، وشقت طريقها الى الصفحات الأولى من الصحف ، جنبا الى جنب مع صيحات الجلاء والدستور ..

فمن هو « العريس » .. ؟

نذهب اليه فى شـــارع محمد على .. وكان فى ذلك الوقت يكاد يكون الشارع الرئيسى فى القاهرة .. كما نراه الآن تقريبا : نفس المبانى والبواكى والدكاكين المتلاصـــقة ، والحوارى التى تصعد اليها بالسلالم .. الا أن أرضـــه كانت لا تزال مرصوفة بالبلاط ، وان الترام لم يكن قد عرف طـــريقه اليه بعد .. وفى وسط الشارع تقريبا نجد « دار المؤيد » أكبر الجرائد اليومية فى ذلك الوقت .. فاذا دخلنا الدار ، وصعدنا الى حجرة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها ، وجدنا فيها شيخا أنيقا ، يجلس الى مكتب كبير .. وقد تربع على مقعده فى جلسة أزهرية وثنى ركبته ، وأخذ يكتب مسندا الورق اليها .. !

انه الشيخ على يوسف .. الرائد الاول للصـــحافة المصرية الكبيرة ..

وكان على يوســـف قد ترك قريته النـــائية فى الصـــعيد « بلصفورة » فقيرا غاية الفقر ، وجاء الى القاهرة على ظهر مركب فى النيل ، ليتلقى العلم فى القاهرة .. لعله — ان أفلح — يصبح فقيها أو معلما ، أو ان فشل يتكسب الرزق بقراءة القرآن على المقابر على أن آمال الفتى الفقير ، الزرى الهيئة ، كانت أعظم جدا مما يظن الناس .. فهو لا يلبث أن يتوقف عن مواصلة الدراسة فى الازهر ويهتم بالمسائل العامة ، فيجرب قلمه فى رسائل يبعث بها الى الصحف ، ثم تغريه الصحافة فيدخل فى ميـــدانها ويعمل فى مجلة « القاهرة الحرة » .. ثم يصدر مجـــلة « الآداب » .. ثم لا تمضى سنوات حتى ينشىء أكبر جـــريدة يومية فى مصر هى : « المؤيد » .. يكتب فيهـــا كتاب الطليعة فى ذلك الوقت : قاسم أمين وســـعد زغلول ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى كامل الطالب بكلية الحقوق قبل أن يتخرج ويصدر جريدته « اللواء »

وكما كان على يوسف أول مصرى صميم يملك جريدة يومية كبرى ، كذلك كان أول صحفى يصل بقلمه الى مركز أدبى رفيع فى الدولة .. فقد توثقت صلاته بأكبر الشخصيات المصرية المعاصرة واتصلت أسبابه بعد ذلك بالخديو عباس الثانى ثم بالخليفة التركى

فى القسطنطينية .. وازدان صدره بأرفع أوسمةالدولة ونياشينها .. وأصبح رجلا مرموقا مرغوبا ، الى جانب كونه صاحب قلم جبار ، يغرسه كل صباح فى صدور الانجليز ..

كذلك كان على يوسف أول صحفى يحاكم فى قضية صحفية هامة .. ذلك أنه أصدر جريدة « المؤيد » بعد شهور قليلة من صدور جريدة « المقطم » التى كان يمولها ويوجهها الانجليز .. وكان الاحتلال ينفق على جريدته هذه ويساعدها بكل أنواع المساعدات .. التى وصلت الى حد تزويدها بالاحكام القضائية لتنشرها قبل النطق بها .. !!

وكان طبيعيا أن يحارب الانجليز جريدة « المؤيد » التى تنافس المقطم وتعارضها .. وأن يكون من وسائل حربهم لها حرمانها من الاخبار الهامة ..

ولكن المؤيد بالرغم من ذلك دأبت على نشر البرقيات السرية التى كان اللورد كتشنر قائدالجيش المصرى فى ذلك الوقتيرسلها الى وزير الحربية المصرى عن حالة الجيش المصرى فى السودان .. وكانت آخرها برقية لكتشنر أن الوباء يفتك بالجنود المصريين هناك .. وكان لنشر البرقية دوى كبير ، وانطلق الانجليز يبحثون وراء المسئول عن تسرب هذه البرقية حتى عثروا عليه : موظف وطنى صغير يعمل فى مكتب تلغراف القاهرة اسمه « توفيق أفندى كيرلس » .. كان ينقل الى الشيخ على يوسف نص البرقيات !!..

وأخذت النيابة تحقق مع على يوسف وتوفيق كيرلس .. وكان وكيل النيابة المحقق شابا بدينا قليلا يضع على عينيه نظارة مذهبة اسمه : محمد فريد ! فلم يلبث أن حفظ القضية « لعدم كفاية الادلة » وثار الانجليز من جديد ، وأصدروا أوامرهم بنقل وكيل النيابة محمد فريد الى الصعيد فاستقال وانضم الى مصطفى كامل .. وأعيد التحقيق من جديد .. وقدم على يوسف وتوفيق كيرلس للمحاكمة ..

وكانت المحاكمة تحظى باهتمام الرأى العام كله .. كما كانت مناسبة لالقاء المرافعات الوطنية علنا ليسمعها الناس جميعا ، وجاء الحكم ببراءة على يوسف والحكم على توفيق كيرلس بالحبس ثلاثة شهور .. ولم يرض الانجليز بهذه النتيجة فقدموا طعنا فى الحكم .. وتركز الاهتمام من جديد حول قاعة محكمة الاستئناف .. واذا بمحكمة الاستئناف تبرىء الاثنين : على يوسف وتوفيق

كيرلس .. وتهجم الجماهير على قفص الاتهام ــ كما روت المؤيد ــ حاملة على يوسف على الاعناق الى سلم المحكمة الخارجى .. !!

وكان من حظ الشيخ علي يوسف أن يقدم مرة أخــــرى الى المحاكمة فى أواخر أيامه لانه طبع كتابا بذيئا جدا اسمه «المسامير» وضعه ثائر قديم هو السيد عبد الله النديم ، مهاجما فيه مفتى الباب العالى فى تركيا .. !

هذا اذن .. هو العريس !

وكان على يوسف قد تزوج فى شــــبابه زيجة « متواضعة » تناسب شبابه المجاهد الفقير .. فلما وصل الى هذا المركز الكبير ، والثراء العريض أيضا ، فكر ــ كعادة المصريين الى عهد قريب ــ فى أن يتزوج مرة ثانية .. زوجة ترضى ــ هــــذه المرة ــ مكانته الممتازة .. تكون جميلة ، ثرية ، من بيت « حسب ونسب ! » ..

وهداه البحث الى بيت « السادات » فهو بيت ثراء وعراقة من وقت بعيد .. وهم « أشراف » من سلالة الحسين وأحفاد النبى .. وكان قد أتيح له أن يرى فى بعض المناسبات « صفية » صغرى بنات السيد السادات : وأن يعرف عنها أنها قد نالت قسطا من الثقافة تعتبر اذا قيست الى مستوى نســـــاء عصرها ثقافة رفيعة ..

وتقدم الشيخ على يوسف يخطب « صفية » التى كانت بيضــــاء اللون ، جميلة الوجه ، بدينــة جدا ، على طراز الجمــــال الذى كان مفضلا عند الشرقيين فى ذلك الزمان .. ولم يرض السيد الســـادات بسهولة .. لم يرض الا بعــد أن توسط « للعريس » الوســطاء من الوزراء والامراء والكبراء ..

وتمت الخطبة ، وقدم الشيخ على يوسف الهدايا ــ المهر والشبكة ــ وكانوا يسمونها « النيشان ! » ..

ومرت سنة ، وسنتان ، وأربع سنوات .. والشـــيخ على يوسف لا يكف عن سؤال الأب : متى يزف الى عروسه ؟ والسيد السادات يماطل ويسوف ويخلق العراقيل.. وضاق الشيخ على يوسف بالامر .. ورأى أن الوضع أصبح مهينا لكرامته .. كما ضاقت العروس بالأمر مثله !

وقرر الشيخ فى نفسه أمرا.. وانطلق الرسل بينه وبين خطيبته

وبعض أهلها من الذين كانوا يؤيدونه ‥ وفى يوم معلوم ، خرجت « صفية » من بيت أبيها ، مع بعض أهلها ، فى زيارة بريئة لبيت السيد البكرى فى (الخرنفش) . وكان السيد البكرى من أقارب أسرة السادات ‥ وفى بيت السيد البكرى كان القسم الثانى من الخطة الموضوعة : كان الشيخ على يوسف جالسا ومعه المأذون ‥ وجاءت العروس ، وعقد المأذون القران ، واحتفل الحاضرون احتفالا سريعا بالزفاف ‥ وخرجت العروس مع عريسها تشيعهما الزغاريد الى بيت الزوجية فى حى « الظاهر » ‥

واستيقظ السيد السادات فى اليوم التالى ليقرأ فى المقطم نبأ زفاف ابنته الى الشيخ على يوسف ! وكانت « المقطم » قد تعمدت أن تنشر الخبر دون أن تشير الى مكان عقد القران ، لتلقى على النبأ جوا من الريبة ‥ وفقد الرجل لبه وجن جنونه : أتهرب ابنته من بيته بغير علمه ؟‥ أتتزوج من رجل غريب رغم أنفه ؟ أيأخذها على يوسف على هذا النحو قسرا ، ويخطفها الى بيت الزوجية خطفا ؟‥ أيتآمر أهل بيته جميعا على إنفاذ هذه الخطة المدبرة ‥؟

وقد يبدو فرار فتاة من بيت أبيها وزواجها بغير علمه فى أيامنا هذه أمرا قليل الغرابة ، لو أنه عرف طريقه الى النشر لما استغرق أكثر من سطور قليلة فى صفحة الحوادث المحلية ان كانت الهاربة من بنات الشعب ، أو قصة قصيرة فى صفحات « المجتمع » ان كانت من بنات البيوتات !‥ ولكن هذا الحادث منذ خمسين سنة كان يبدو أخطر جدا مما نستطيع نحن أبناء هذا العصر أن نتصور ‥ وقد زاد من خطورته أن « الهاربة » كانت من هذا البيت العريق ، ذى الاسم الدينى الذى كان الناس يحفظون أنسابه ويتبركون به ‥ وان (الهارب) رجل لامع شهير ، من أبرز شخصيات السياسة والمجتمع

وتقدم السيد السادات بلاغا الى النيابة يتهم فيه الشيخ على يوسف بأنه غرر بابنته ‥ وبحثت النيابة الموضوع فوجدت أن السيدة صفية قد بلغت سن الرشد فمن حقها شرعا أن تزوج نفسها‥ وقد حضر القران عدد كبير من أقارب العروس ، فليست هناك أية شبهة يمكن أن يستنتج منها أن الشيخ على يوسف قد غرر بالسيدة صفية ‥

وحفظت النيابة البلاغ ‥

ولم يسكت السيد السادات على هذا القرار ‥ فرفع دعوى أمام المحكمة الشرعية يطلب فيها الحكم بابطال الزواج استنادا الى أن الشريعة تشترط لصحة الزواج وجود تكافؤ بين الزوجين فى الاسلام

والنسب والمال والحرفة •• وقال السيد السادات أنه يطعن فى كفاءة علي يوسف لابنته من ناحيتين : النسب •• والحرفة ! ••• فالشيخ علي يوسف من ناحية النسب لا ينتسب الى نسب رفيع كالسادات ، وهو من ناحية الحرفة يحترف (مهنة الجرائد) التى هى ـ كما قال فى صحيفة دعواه ـ (أحقر الحرف •• وعار وشنار عليه !) ••

وأحيلت القضـــية الى محكمـة قاضيها اسـمه الشيخ أبو خطوة وتحددت لنظرها جلسة يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٠٤ ••

وفى هذه الاثناء كان الرأى العـــام كله قد انقســم الى معسكرين متخاصمين :

فريق يدافع عن الشيخ على يوسف•• أغلبه من المثقفين والمستنيرين الذين رأوا أن ماصنعه على يوسف لاغبار عليه •• وانه كفء لابنة السادات فعلا •• فضلا عن أصدقائه وأنصـــاره السياسيين ، وعلى رأسهم الخديو عباس حلمى نفسه •• فقـد كان على يوسف صديقـا شخصيا له ، مدافعا دائما عنه •

وفريق يهاجم الشيخ على يوسف•• يتكون من أغلبية الرأى العام ، ويضم ألوانا مختلفة من النـــاس •• يضم الجامدين الذين يؤمنـون بالاخلاق القديمة كلها •• بأن الحسب والنسب شيء مقدس لا يرقى اليه العصاميون ! وأن الوارث الغنى ولوكان عاطلا أشرف وأرفع من الفقير الذى ارتفع بنفسه !•• ويضم كل الذين يستغلون الجهـــل السائد من مشايخ الطرق ومشـعوذى الاديان •• ويضم أيضـا كل خصوم الشيخ على يوسف السياسيين الذين لم يجـدوا فى قضـية الزواج الا مناسـبة للتشهير به والطعن فيه •• فتسابقت الصـحف المعادية تكيل له أقذع التهم ، وتعيره بأصله الحقـير وفقـره القديم وزواجه الحرام ••!

وأصبحت القضية التى يختلف فيها الناس ويتجادلون حولها فى الصحف والمنتديات والمقاهى والبيوت هى : هل يحق لمثل هذا الرجل العصامى ، العظيم بنفســه لا بنسبه ، أن يتزوج بنت الاشراف ذات الحسب والنسب ••

وكتب على يوسف فى صدر جريدته مقالا روى فيه القصة كلهـا •• ثم تحدث عن اتهامه بأنه غير كفء لزوجته ، فقال مخاطبـا أباها السيد الســـادات : (أما الشرف فبالطريقة التى يمكنك بهـــا أن تثبته لنفسك نستطيع نحن ، أما الثروة فبالطريقة التى تتوصل بها

الى بيان بسطة مالك نتوصل نحن ٠٠ وأما الحرفة فكلانا عضو فى الجمعية العمومية ٠٠ أنا من قبل الامة وأنت من قبل الحكومة ٠٠ والامة أصل والحكومة فرع ٠٠ وأما كونى صاحب جريدة فانى أترك شرف هذه الحرفة للسان الدفاع ٠٠ وويل ثم ويل للصحافة ان أصابها سهم القضاء بشر !) ٠٠

وفى اليوم الموعود انعقدت الجلسة ، وازدحمت القاعة ازدحاما لم تعرف المحاكم الشرعية له مثيلا قط ٠٠ ومثل السيد السادات (الشيخ الفندى) وقام حسن بك صبرى بالدفاع عن الشيخ على يوسف والشيخ عز العرب عن السيدة صفية ٠٠

وكان الشيخ أبو خطوة معروفا بتزمته الشديد ٠٠ فكان اتجاهه واضحا ضد الشيخ على يوسف ٠٠ وفى الجلسة الاولى حكم ـ مبدئيا ـ بتسليم السيدة صفية الى أبيها لمنع المخالطة الزوجية حتى يفصل نهائيا فى الدعوى ٠٠!

ووافق على يوسف على أن تعود زوجته الى بيت أبيها ٠٠ ولكن السيدة صفية رفضت ذلك رفضا قاطعا ٠٠ وأعلنت أنها اذا عادت الى بيت أبيها فسوف تتعرض لأذاه الشديد ، ولذلك فهى لن تبرح بيت زوجها مهما كانت النتائج ٠٠ وبعد مفاوضات طويلة ، اهتدى الشيخ على يوسف الى حل يوفق به بين قرار المحكمة واصرار زوجته ٠٠٠ فاتفق معها على أن تترك بيت الزوجية وتذهب الى بيت رجل «محايد» مؤتمن ٠٠ وخيرها بين بيت الشيخ أبى خطوة قاضى المحكمة نفسه وبين بيت مفتى الديار المصرية الشيخ النواوى ، أو بيت عالم جليل معروف بحسن السمعة هو الشيخ الرافعى ٠٠ فاختارت الاخير ، وانتقلت فعلا الى بيته وأرسلت الى المحكمة خطابا بذلك ٠

وعقدت الجلسة الثانية .. واذا بالشيخ أبى خطوة يعلن أنه لا يعتبر هذا الحل تنفيذا لقرار المحكمة ، ويقرر ايقاف القضية ، واضرابه عن نظر الدعوى أو أى قضية أخرى فى المحكمة حتى ينفذ حكم القاضى بارسال السيدة صفية الى بيت أبيها ولو بالقوة ٠٠

وتلك ـ فيما أعلم ـ هى أول مرة « وآخر مرة » يعلن فيها أحد القضاة الاضراب ٠٠٠!

وكان الشيخ على يوسف لا يرى زوجته بعد أن ذهبت الى بيت الشيخ الرافعى ، فأرسل اليها خطابا يحاول اقناعها بالخضوع لحكم المحكمة ، هذا نصه :

« الساعة ١٠ صباحا ـ ٢٨ الجارى

قرينتى المحترمة

بعثت لفضيلة مولانا الشـيخ الرافعى أبدى له الرأى الذى عولت عليه ، وهو أن تذهبى الى بيت والدك مختارة ، حلا للاشكال القائم الآن بين الحكومة والمحكمة ٠٠ واذا كان فضـيلة الاسـتاذ يتكفل بايصالك الى بيت أبيك وأخذ التعهد اللازم عليه ألا يصيبك مكروه ، فعندك كفالة قوية أرجو أن تعتمدى عليها ٠٠ وتنفذى هذا الرأى الذى أراه خير حل موفق لشرفنا ٠٠٠ ولمصلحة النظام العام ٠

واقبلى فائق الاحترام من زوجك المخلص ٠

« على يوسف »

ولكنها رفضت أيضا ٠٠ وأعلنت أنها لن تذهب الى بيت أبيها الا على أسنة الرماح ٠٠ !

وتحرج الموقف جدا ٠٠ وتوقف العمل فى الاداة الحكومية كلهـا تبحث عن حل لهذا المخرج :

فالقاضى مضرب عن العمل بتاتا حتى تذهب قوة مسـلحة تنتزع السيدة قسرا وتحملها الى بيت أبيها ٠٠

والخديو عباس ـ صديق على يوسف ـ ضيق بهذه المحنة التى وقع فيها صاحبه ٠٠

والرأى العام الذى كان متجها ضد على يوسف بقوة بدأ يتردد ٠٠ فانه لا يستسيغ أبدا أن تعامل سيدة محترمة على هذا النحو المهين ، وأن تنقل فى سيارات البوليس قسرا ، وتنتزع من خدرها انتزاعا ٠

والصحف المعـادية لعلى يوسف ـ من جهة أخرى ـ لا تكف عن التشهير به ٠٠ كانت تتحدث سـاخرة عن الغـرام الذى ذهب بلب الشيخ ، والهوى الذى يمزقه ٠٠ وتنشر أخبارا مؤداها أن على يوسف يتسلل الى بيت الشيخ الرافعى ـ حيث توجد السيدة صفية ـ كل يوم عند منتصف الليل ، ويخرج قبل أن يبزغ الفجر ٠٠!

أما الحقيقة ، فهى أن على يوسف وصفية السـادات كانا يتبادلان الرسائل عن طريق خادمة أوروبية تتردد بينهما ٠٠ رسائل عاطفية حارة ٠٠ ثار لها الشيخ الرافعى الذى تنزل السيدة صفية عنده ٠٠

واعتبر هذه الرسائل نوعا من الاتصـــال المنهى عنه ٠٠ فأمر الخادمة الاوروبية بألا تعود ٠٠!

وتوالت الاجتماعات فى وزارة « الحقانيــة » بين الوزير ووكيل الوزارة وكبار رجال القضاء الشرعى ٠٠ واحتاج الامر الى ضغط كبير حتى اقتنع الشيخ أبو خطوة بأن يعدل عن اضرابه ، وأن يمضى فى نظر الموضوع ٠٠

وأى موضوع ؟٠٠ انها مناظرة هائلة بين نوعين من الناس : رجل ورث عن آبائه مجدا ومالا .. ورجل فقير ارتفع من غمار الناس وصنع لنفسه مجدا وشرفا .

وكان على السادات لكى يكسب القضـــية أن يثبت شيئين : الاول أن نسب على يوسف لا يوازى نسبه٠٠ والثانى أن الحرفة التى يتعيش منها غير شريفة ٠٠!

وبدأت القضية باستجواب الشهود ٠٠ وجاء محامى الســادات بعشرات من عامة الناس شهودا ٠٠ يسأل الواحد منهم أمام المحكمة ما هو نسب السادات ٠٠؟

فيرد الشاهد : هو فلان بن فلان .. حتى يصل الى محمد بن ادريس الذى كان خليفة على بلاد المغرب منذ قرون .. ثم الى فاطمة الزهراء .. ابنة النبى ..!

ويسأل القاضى ٠ ولماذا تحفظ هذا النسب الطويل ٠٠؟

فيجيب : للتبرك به ٠٠ !

ويسأل أخيرا : ماهو نسب على يوسف ٠٠؟

ـ لا أعرف !

ثم جاء محامى السادات أيضا بشهود آخرين ، من الموظفين الذين عملوا فى « بلصفورة » مسقط رأس على يوسف ، يشهدون بأن أسرة على يوسف هناك فقيرة ، وأن أباه كان لا يملك شيئا ٠٠

وكان القاضى يسأل الشهود أسئلة من هذا النوع بالحرف الواحد :

* هل بيت يوسف له ما للبيت السادات من العلم والمكارم ؟

ـ لا ٠٠!

* هل فيه مافى بيت السادات من العز والابهة ٠٠؟

ـ لا ٠٠!

* هل أصول العلم والتقوى فى بيت يوسف قديمة ٠٠؟

ـ لا ٠٠!

وقال أحد الشهود : انه أدرك أن على يوسف من أصل « وضيع » حين رآه يوما يقف فى احدى المطابع ويصحح ديوانا من الشعر من تأليفه ٠٠ اذ لايفعل ذلك « الا عديمو الاصل ! »

الى هذا الحد ، كان السواد من الناس يعرفون كرامة الاصل ولا يعرفون كرامة العمل ٠٠

ثم وقف محامى السادات يترافع ٠٠

قال : ان نسب موكله يرجع الى أكثر من ألف سنة ٠٠ فى حين أن الشيخ على يوسف (أعجمى !) ليس له نسب معروف فى الاسلام الا (يوسف) فقط ٠٠ أى أبوه ٠٠ وهو قد نشأ فى قرية (حقيرة جدا تدعى بلصفورة كل أهلها أعاجم !) ٠٠ ثم تطرف المحامى فقال : ان القاعدة أن سكان مصر كلهم أعاجم ما عدا الاسر القليلة جدا ، المعروفة النسب مثل : الوفائية والسادات والبكرى ٠٠

ثم انتقل المحامى الى حرفة على يوسف٠٠ فقارن بين موكله المحترم الذى يعيش فى أملاك واسعة تركها له آباؤه الاماجد (وهذه ألفاظ المحامى) وبين الشيخ على يوسف الذىيضطر الى العمل لكسب رزقه! ويحترف مهنة حقيرة هى ٠٠ الصحافة !

ثى أفتى المحامى بأن (حرفة الصحافة فى ذاتها دنيئة ويحرمها الدين الاسلامى) لماذا ؟ (لانها تقوم على الجاسوسية والاشاعة وكشف الاسرار ، وهذا منهى عنه شرعا !) ٠

وبعد ذلك نهض محامى على يوسف يرد الهجوم ، ويفند هذه الاقوال ٠٠ على أن الدفاع الاهم كان خارج المحكمة ، كان الناس يطالعونه فى المقالات التى يكتبها على يوسف بنفسه فى صدر المؤيد كل يوم ، وطوال أيام المحاكمة ٠٠ وكان من ردوده البارعة على قول محامى السادات أن الصحافة محرمة شرعا ، قوله : « لقد فات حضرة المحامى أن جميع حضرات القضاة ٠٠ من فضيلة القاضى الاكبر الى القاضى الذى ينظر هذه القضية ٠٠ مشتركون فى المؤيد وغير المؤيد من

الصحف ، ويدفعون قيمة الاشتراك سنويا ٠٠ فلو صح أنها دنيئة وأن كسبها حرام لكانوا جميعا آثمين ٠٠ لانهم مشاركون لاصحاب الجرائد باشتراكهم فيها !) ٠

وقد عاد الشيخ أبوخطوة أثناء المحاكمة فأرسل الى الشيخ الرافعى الذى تنزل عنده السيدة صفية خطابا قال فيه : « ان الحيلولة الشرعية تتحقق بمنع المخالطة الجسمية والكتابية والشفاهية وغيرها (أى أنه محرم على على يوسف أن يكتب لها رسالة !) ولكن ما أشيع على الألسنة من أن الشيخ على يوسف يتردد الى منزلكم كل ليلة سحرا ويذهب صباحا ومن وجود طباخ يطبخ فى بيتكم على نفقته ومن تكرار حضور الملبوسات من بيته كل يوم وعودها وأمثال ذلك مما يوجب شدة الاسف ! » وثار الشيخ الرافعى واعتبر هذه الرسالة اهانة ٠٠ وأرسل الى مفتى الديار المصرية يطلب منه أن يتسلم السيدة صفية منه ٠٠ لولا أن عاد مفتى الديار فاسترضاه ٠٠!

وانتهت المحاكمة ، واعتكف الشيخ أبو خطوة خمسة عشر يوما يحضر الحكم ٠٠ خمسة عشر يوما فى مكان لا يعرفه أحد ٠٠ وفى خلال هذه الفترة ، بذلت الحكومة وبذل الخديو عباس جهودا جبارة للتأثير على الشيخ أبى خطوة ، كى يجىء حكمه لصالح على يوسف ٠٠ ولكنه كان معتزا باستقلاله ، متمسكا برأيه الى أقصى الحدود ٠٠

وأصدر الشيخ أبو خطوة أخيرا حكمه ، واذا به يحكم بفسخ عقد الزواج والتفريق بين الزوجين ٠٠ واذا به يؤكد فى حكمه كل ماذهب اليه السادات ، وفى لهجة قاسية جدا ٠٠ بل أنه أضاف الى دفاع السادات شيئا طريفا ٠٠ فقد رأى أن ثراء على يوسف الحالى لايمحو عنه تلك الوصمة : أنه كان فقيرا ذات يوم ، فقال فى حكمه بالحرف الواحد « ان فقره فى بدئه وان زال عنه الآن باكتساب الغنى ، الا أن عاره لا يزول عنه ! »

وكتب الشيخ على يوسف تعليقا حزينا رزينا على الحكم فى جريدته قال فيه :

« نشرنا الحكم الصادر اليوم فى القضية وتركنا لحضرات القراء رأيهم فى موضوعه وأسلوبه ٠٠ أما نحن فلم يؤثر علينا ما فى لهجته الشديدة بشىء ما ؛ اذ أمامنا الاستئناف ، وفى اعتقادنا أنه سينصفنا ٠٠ وحينئذ يصبح حكم حضرة القاضى أشبه بمقالة من جملة المقالات التى قرأناها فى بعض الصحف ونسيناها ! » .

وفى محكمة الاستئناف ، قرأ محامى على يوسف قول أبى خطوة أن الثراء اللاحق لا يمحو عن صاحبه وصمة الفقر السابق ٠٠ ثم صرخ من أعماقه :

« أين هى النصوص التى تقول ان الفقر السابق يبقى عاره على صاحبه مهما نال بعد ذلك من الغنى والمال والجاه ؟٠٠ ان القائل بدلك يريد أن يسجل الانحطاط على الجنس البشرى كله ٠٠ لان الاصل فى الانسان الفقر ، والغنى طارىء عليه ٠٠ وأساس الغنى الجد والعمل ٠٠ ولو علم الانسان الفقير الذى توافرت فى غريزته بواعث الهمة ، وانبعثت نفسه للعمل ، أن عار فقره سيبقى له ولأولاده من بعده وصمة يعير بها ، حتى من الكسولين الخاملين ممن رزقهم الله ميراثا أو جرت عليهم صدقات وقف قديم ٠٠ ما انبعثت نفسه لعمل كبير ٠٠! » ٠

وذهبت هذهالصيحات بدورها أدراج الرياح ٠٠ وجاء حكم محكمة الاستئناف مؤيدا الحكم الأول ٠٠

الى هنا وانسحبت القضية من على المسرح ٠٠ لتبقى ذيولها خلف الكواليس ٠٠ فبعد أن صدر الحكم على هذا النحو ، وشعر السيد السادات بأن كرامته قد ردت اليه ٠٠ اتصلت المساعى والوساطات بينه وبين الشيخ على يوسف ٠٠ حتى رضى السيد السادات بأن تتزوج ابنته صفية من الشيخ على يوسف بعقد جديد !

وتم الزواج فعلا ٠٠ وعادت السيدة صفية الى بيت زوجها !

والغريب فى الامر ٠٠ هو تأثير هذه القضية على نفسية الشيخ على يوسف بعد ذلك ٠٠ فبالرغم من أن زواجه الجديد من السيدة صفية كان تفنيدا كافيا لكل ما قيل عن كفاءة النسب والحرفة ٠٠ فان الجرح الذى أصابه من هذه القضية لم يندمل قط ٠٠ فبعد أن حمل رتبة الباشوية ، وأصبحت جريدته أكبر جريدة عربية ، وأصبح رئيسا لحزب من الاحزاب الثلاثة الموجودة فى مصر ٠٠ ظل يسعى دائبا ليسجل اسمه فى سجل الاشراف ، ولينسب نفسه الى هذا النسب الذى استكبر مرة عليه .. ولم يهدأ حتى ظفر بهذا الامل الغريب ، بعد ثمانى سنوات من القضية ٠٠ ورضى أن يعتزل حياة الصحافة والسياسة التى كللته بالعار ، ليعين شيخا للسادة الوفائية ٠٠ لان هذا التعيين يجعله ندا لزوجته ٠٠ ولأسرتها التى رفضت يوما أن تصاهره !!

وليس غريبا ـ وهو يطوى فى نفسه هـذه العقدة ـ ليس غريبا أن تعرف أنه لم يكن موفقا أبدا فى حيـاته الزوجيـة مع السـيدة صفية ، وأنهـا كانت دائمة التنغيص عليه تنغيصا جعـله فى سن الكهولة يرابط فىمكتبه بالجريدة عشرين ساعة متوالية فى اليوم ، فرارا من البيت .. ولما مات سنة ١٩١٣ ، كانت زوجته لا تزال شـابة ، فعـاشت بعده ما يقرب من ثلاثين سنة ٠٠ وأحبت الممثل المعروف زكى عكاشة ، وتزوجته

ونستطيع أن نفهم من ذلك أنالشيخ على يوسف كان فىحقيقته رجعيا ، وان قلت رجعيته عنالآخرين ، وكان فىقرارة نفسه يؤمن بكل ما سـاقه خصومه من حجج الحسب والنسب والحرفة ٠٠ وهى رجعية ألقت بظلهـا على الكثير جدا من نواحى تفكيره السياسى ٠٠ فكان اذا ثار شعب ليبيا مثلا علىالغزو الايطالى كتبالمقالات الرائعة مدافعا عن شعب ليبيا ، داعيا الىالتطوع ضد ايطاليا ، فاتحا أبواب الاكتتاب لارسـال المعونة الطبية الى المجـاهدين ٠٠ فاذا ثار شعب اليونان على الاستعمار التركى هاجم شعب اليونان وندد بالثائرين فى وجه الاتراك ٠٠ ربما لمجرد أنهم « يونان » !

ومع كل ذلك ٠٠فان هذه القضية قد لعبت دورا باهرا حينهزت الناس من الاعماق ٠٠ وكان الجدل الذى أحاط بهـا مدرسة فتحت عيون الرأى العام ودفعته الى اعادة التفكير فى الكثير مما كان يؤمن به من قديم ٠٠

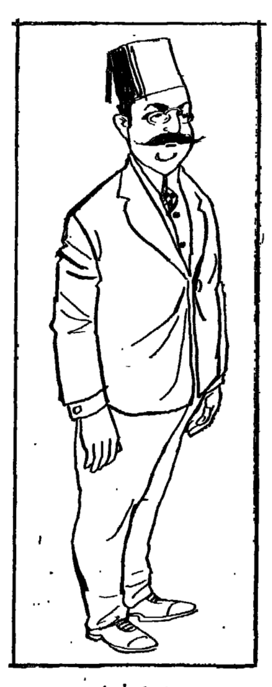
وقد نضح اهتزاز الناس فىقصيدةكتبها الشاعر حافظ ابراهيم يسجل فيها حزنه وسخطه ، مخاطبا مصر :

حطمت اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيـان ، فلا تغضبى
فما أنتيامصر دار الأديب ! ... ولا أنت بالبـلد الطيب !

⊙❖⊙

وقالوا « المؤيد » فى غمرة ... رماه بهـا الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول ... فجن جنـونا ببنت النبى !
فنـادى رجال باسقـاطه ... وقالوا تلون فى المشرب
وزكى « أبو خطوة » قولهم ... بحكم أشـد من المضرب
فيا أمة ضـاق عن وصفهـا ... جنـان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقـة ما بيننـا ... ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينـا الامام الحـكيم ... ويكرم فينـا الجهول الغبى !

الجلاء.. والدستور.. والفن الجميل



محمد فريد

وهذه دار « اللواء » ..

وقد سرنا فى شـارع « نوبار باشا » ـ الدواوين حاليا حتى وصلنا الى البيت الكبير رقم ٣١ ، الذى تشغله الآن « مدرسة عابدين الابتدائية » .. ففى هذا البيت أسس مصطفى كامل جريدة « اللواء » فى سنة ١٩٠٠ .. وقد مضت على هذا التاريخ عشر سنوات ، فنحن الآن فى سنة ١٩١٠ ..

هذه اذن .. هى الدار التى صدرت فيها « اللواء » وان جدرانها لتنضح بالذكريات .. ففى هـذه الحجرة كان مصطفى كامل يسهر الى الصباح ، الى أن تخرج المطبعة أول أعداد الجريدة ، كاتبا أحيانا ، متحدثا أحيانا ، ملتهبا دائما .. وهذه الساحات شهدت انعقاد أول جمعيـة عموميـة لأول حزب سـياسى علنى عرفته مصر .. الحزب الوطنى ، وشهدت الاعضاء القادمين من جميع أنحاء القطر ينتخبون مصطفى كامل رئيسا مدى الحيـاة ، مدى حيـاته القصيرة الخاطفة ، وهنا كانت منصة وقف عليها مصطفى كامل يلقى برنامج الحزب .. وهذه الحجرة الموحشة شهدته يصعد اليها بعد انتهاء الحفل مجهدا ، مهدودا ، وقد أكلت صدره العلة ، ثم شهدته يموت ..

نحن الآن فى هذه الدار ، بعد سنتين فقط من وفاة مؤسسهـا وقد حل محله فى رياسة الحزب رجل بدين ، وقور ، سريع الكلام .. يضع على عينيه نظارة ذهبية أنيقـة ، هو محمـد فريد ، أما رئيس تحرير الجريدة فهو الآن الشيخ عبد العزيز جاويش ..

وفى احـدى حجرات الدار ، نجد شـابا معمما ثائرا .. يعمل مصححا فى الجريدة ، وينظم من حين الى آخر قصيدة ملتهبة تنشرها له « اللواء » .. هو الشيخ على الغـاياتى ، وقد جمع الشيخ على الغاياتى مجموعة قصـائده لينشرها فى ديوان ، وذهب الى محمـد فريد وعبد العزيز جاويش يطلب من كل منهما أن يكتب له كلمـة تقـديم .. وكتب له محمـد فريد كلمة عن « أثر الشعر فى تربية الأمم » وكتب له عبد العزيز جاويش مقدمة أخرى .. ولم يمض شهران حتى كان ديوان « وطنيتى » قد خرج الى الناس ..

وفجأة .. أصدرت الحكومة أمرا بمصادرة الديوان ومنع تداوله ،

وبمعاقبة كل من يضبط متلبسا بجريمة عرض الكتـاب للبيع ..
ونشرت الصحف أن النيابة العامة ستقدم الى المحاكمة كل من شارك في اصدار هذا الكتاب ..

وكان محمد فريد مسافرا في أوروبا . وعلى الغاياتي في تركيا . فلم تجد النيابة في القـاهرة الا عبد العـزيز جاويش .. ورجلا اسمه « اليـاس أفنـدى دياب » صاحب مكتبة ضـبطت تبيع الديوان .. وانتهت النيـابة من تحقيقهـا بسرعة ، وقدمت على الغاياتي (غيابيا) وجاويش والياس دياب الى المحاكمة ، وكانت تهمة الغاياتي القذف في حق الوزراء والمحاكم والحض على كراهية الحكومة ، حكومة الاحتـلال طبعا .. أما تهمة جاويش فهى أنه حرض الغاياتي على ذلك ، وساعده على اخراج الديوان بالمقدمة التى كتبها له ..

ووقف جاويش واليـاس دياب في قفص الاتهام .. وجلست على منصة القضاء هيئة المحكمة برياسـة محمد مجدى بك وعضوية على ذو الفقار بك ومسيو سودان .. ومثل النيابة رجل سيصبح شهيرا فيمابعد .. اذ رأس ديوان الملك فؤاد مرة ، ورأس الوزارة في غيبة الدستور مرة أخرى ، وهام في أواخر أيامه بحب فتـاة نمساوية من فتيات الفنادق ، هو : توفيق نسيم .. أما الدفاع فقد نهض به احمد بك لطفى ومحمـد بك أبو شادى وعبد السـلام ذهنى ..

وكان اهتمام النيابة بعرقلة الدفاع والتضييق عليه واضحا .. فقـد طلبت النيابة من المحـامين الذين حضروا التحقيق ألا يدونوا أى ملاحظـات في ورق أو مذكرات معهم ، وتهكم أحمـد بك لطفى على ذلك في الجلسة فقـال : انه كان يجب على النيابة أيضا أن تمتحن ذاكرة المحامين ، وتمنع قوة الذاكرة منهم من الحضور .!

وأراد محمـد بك أبو شـادى أن يطبع مذكرة الدفاع فأصدر حكمدار العاصمة أمرا بمنع ذلك ، لان المذكرة ــ طبعا ! ــ كانت تستشهد ببعض أبيـات الديوان المصادر .. ولمـا كان الديوان مصادرا .. فان طبع أى بيت منه .. ولو في مذكرة الدفاع .. ممنوع ..

وفى الجلسة وقف توفيق نسيم يشن حملة هائلة لا على المتهمين فقط ، بل على الشعراء جميعا .. بدأ مرافعته قائلا :

« قام رجل من أسراء الخيال (أى الشعراء !) الذين ينظرون بغير روية ويحكمون بغير عقل ، وأخذ لنفسه حظها من لذة استباحة الجرائم وتعظيم الجناة .. قام هذا الشاعر المفتون ووضع هذا الكتاب باسم «وطنيتى» فلا حيا الله وطنيته ولا بارك الله فيها من وطنية فاسقة .. لقد مجد فعلة « الوردانى (١) » وهو قاتل سفاك .. وهذا تحريض على ارتكاب الجنايات .. حقا ان فى هذا الكتاب جملة قصائد أدبية مثل شفاء ولى العهد ورثاء عاصم باشا ! ! ولكن هذا لا يبرر سائر ما فى هذا الكتاب الذى يعظم الاثم ويدفن الحسنة » .

وسرد توفيق نسيم بعض ما جاء فى الديوان من أبيات معاقب عليها مثل :

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما !

ومثل :

عار عليكم أن يقال وزارة لم تدر ان سئلت بيان جواب

ومثل قول الشاعر مخاطبا رئيس المحكمة الذى حكم بالسجن على عبد العزيز جاويش فى قضية سابقة :

حكمت فلم تنصف وقلت فلم تصب
ورمت مراما دونه الله والناس !

وبعد أن حلل توفيق نسيم أغراض الشاعر من قصائده ، انتقل الى عبد العزيز جاويش فأثبت أنه شريك فى الاثم لانه كتب مقدمة الكتاب ، وفند دفاع جاويش عن نفسه بأنه كتب المقدمة قبل أن يقرأ الديوان قائلا : انه لا شك قرأ القصائد قبل ذلك فى الصحف ..

---

(١) الوردانى هو الذى قتل بطرس باشا غالى لانه وقع اتفاقية السودان .

ثم ختم مرافعته قائلا : « ما لهؤلاء الكتاب يزخرفون الكلام البذىء للجمهور ، ألا يعرفون عواقب ما يكتبون ؟ انهم اذا أصلحوا كتاباتهم أصلحوا أمتهم واذا أفسدوا كتاباتهم أفسدوا أمتهم .. وليس أهون على الكاتب من أن يجلس على مقعد ويكتب ما يشاء .. فاحتفظوا بأنفسكم أيها الكتاب والتمسوا الخير لأمتكم من وجوهه الصحيحة ، فقد مزق انذار الوقائع الآذان ، وكادت تفقأ عبر الحوادث العيون ! ! » .

ثم تكلم الدفاع ، وكان محور كلامه أن هذه القصائد نشرت قبل ذلك فى الصحف دون أن تعترض عليها الحكومة .. فصاحبها معذور اذا هو جمعها بعد ذلك فى كتاب وأخرجها للناس ..

ولكن المحكمة لم تقتنع بهذا الدفاع فحكمت على الغاياتى - غيابيا - بالحبس سنة مع الشغل وعلى عبد العزيز جاويش بالحبس ٣ شهور وعلى الياس ديأب بالحبس شهرين مع ايقاف التنفيذ ..

على أن هذا كله ليس هو القضية ، ان هو الا مقدمة فحسب..

أما القضية فهى قضية محمد فريد .. فقد كان مفهوما أن الحكومة تصيدت هذا الكتاب لكى تصل به الى ايذاء الرأس المفكر ، والروح المجاهدة ، التى توجه نشاط الحزب الوطنى : أى الى محمد فريد نفسه .. وكأن محاكمة جاويش والغاياتى لم تكن الا تجربة لتعرف منها الحكومة مصير محمد فريد اذا قدم الى المحاكمة .. فلما صدرت هذه الأحكام عرف أن الحكومة ستقدم فريد الى المحاكمة بمجرد عودته من أوروبا ..

وكان اتجاه نية الحكومة الى تحطيم محمد فريد والحركة الوطنية كلها واضحا قبل ذلك بشهور طويلة ..

فكما تصنع كل حكومة مستبدة أخذت الحكومة تضيق الخناق على حرية الرأى شيئا فشيئا .. فى مارس ١٩٠٩ أصدرت قرارا باعادة العمل بقانون المطبوعات الذى صدر فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨١ ابان الثورة العرابية ! وعللت ذلك بـ « تمادى الجرائد فى التطرف والخروج عن الحد حتى أدى ذلك لشكوى الناس ! » ثم أصدرت

قانونا يجعل القضـــايا الصحفية من اختصاص محاكم الجنايات بدلا من محاكم الجنح .. ذلك أن محاكم الجنايات أحكامها أشد . ولان أحكام محكمة الجنح يمكن اســتئنافها ، أما أحكام محكمة الجنايات فهى نهـائية لا تقبل طعنا . اذ لم تكن محكمة النقض قد أنشئت بعد ..

وبات الناس فى قلق ، ينتظرون عودة محمد فريد ..

فماذا كان يصنع محمـد فريد فى أوروبا . والحكومة المصرية تفتل له الحبال ..؟

لم يكن يلهو ويتنزه .. لم يكن ينفق أمواله فى منعة أو هواية ، بل كان فى نفس الايام التى انعقدت فيهـا الجلســات لمحـاكمة أصحابه . يسـتعد لعقد مؤتمر دولى فى باريس لبحث المســألة المصرية .. وقد أنفق على المؤتمر من ماله .. واسـتخدم نفوذه لكى يحضره أكبر عدد من الساسة والنواب .. والزعماء وجميع العناصر المعادية للاستعمار فى أوروبا والهند ، والشرقين الاوسط والبعيد .. وقبل عقد المؤتمر بأسبوع قررت الحكومة الفرنسية منع اجتماعه فى باريس ، حرصـا على مجاملة انجلترا . فأسرع فريد بنقل مقر المؤتمر الى بروكسل ..

وعقد المؤتمر فعلا .. واستمر أياما حافلة تركزت فيها الاضواء على قضية مصر .. وفى الوقت الذى كان فيه وكيل النيـابة فى القـاهرة يجرح محمـد فريد . كان يقف على منصــة اخرى فى بروكسل داعيا الى استقلال مصر كلها ، بما فيها وكيل النيــابة توفيق نسيم !

وفى هذا المؤتمر ألقى « كير هاردى » مؤسس حزب العمــال الانجليزى ، وزعيمه المعروف خطبة شهيرة ، هاجم فيها المصريين لانهم يفكرون فى مقاومة الانجليز مقاومة سلبية ، وقال : انه لن يخرج الانجليز من مصر الا الثورة المسلحة ..

فى أثناء هذا المؤتمر ، تلقى محمد فريد أنباء مصر .. وعرف أنه مطلوب للمحاكمة !.. فقد انهالت عليه خطابات أصدقائه فى

مصر ، يقولون له : لا تعد الى مصر !. انهم يريدونك ! يريدون أن يضعوك خلف القضبان ويستريحوا ! ابق فى أوروبا ، فهناك تستطيع أن تجاهد ..!

ولكن فريد لم يستمع الى كل هذه الاصوات .. استمع الى صوت واحد رقيق ، ينبعث من خطاب نادر المثال ، خطاب من ابنته « فريدة » التى شبت على حجره وتشربت من عقيدته .. ارسلت اليه الابنة الشابة تطلب منه — دون الناس جميعا — أن يعود الى مصر ، ويدخل السجن : « لنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم » .. و « أختم جوابى بالتوسل اليكم باسم الوطنية والحرية ، التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن ! » ..

وحزم فريد حقائبه ، وركب الباخرة .. فى طريقه الى السجن !

ولكن .. قبل أن يصل فريد الى شاطىء مصر .. يجب أن نعرف لماذا كان الانجليز ، وعملاء الاحتلال ، يكرهون فريد الى هذا الحد ؟. ما الذى أخافهم منه ..؟

كان محمد فريد من الذين أدركوا ادراكا علميا عميقا حقيقة المسألة المصرية بعد الاحتلال الانجليزى .. فعرفوا الطريق — أسلم الطريق — الى تحقيق المستقبل المصرى .. انبعث مصطفى كامل كالشعلة توقظ الرقود وتنير الطريق ثم انطفأ ولم يقف فى هذا الومض طويلا عند فكرة خصبة .. مما جعله يتخبط بين تأييد الخديو ، وتأييد الباب العالى التركى ، والاستعانة بفرنسا .. وجاء فريد ليضع النقط على الحروف التائهة ، ليرسم للبعث المرتقب وسائله وغاياته ، وجرب المسألة فى ذهنه المنطقى المستنير كالآتى :

ان غاية الحياة السياسية أن تحقق للشعب حياة سعيدة موفورة .. وقد أثبتت كل تجارب البشر ، فى كل بقاع الارض : ان الحياة السعيدة الرضية الموفورة لا تتحقق للشعب الا اذا كان سيد نفسه .. أما أن تحكم مصر دولة أجنبية فان معنى ذلك استغلال مصر وشعبها لحساب هذه الدولة الاجنبية ، وسواء سمى هذا الحكم الاجنبى « استعمارا » أو حماية أو انتدابا أو

مساعدة .. أما أن تحكم شعب مصر فئة معينة محدودة منه ، تنفرد بالرأى فيه : أسرة مالكة أو طبقة معينة أو حزب واحد .. فلن ينتج ذلك الا توجيه الدولة كلها ،، تدريجا ، لحساب هذه الاسرة المالكة ، أو الطبقة المعينة ، أو الحزب الواحد ! قد يكون الشعب فقيرا ، زريا ، جائعا .. قد تكون نسبةالأمية فيه غالبة .. ولكن أن يسير الشعب متخبطا متعثرا بطيئا فى الطريق المؤدى الى مصلحته ، خير من أن يسير بسرعة فى طريق لا يؤدى الى مصلحته أبدا .. فلابد اذن .. أن يتحرر الشعب من كل سيطرة أجنبية ولابد أن يصبح أبناؤه جميعا شركاء فىالحكم ، متساوين فىالحقوق والواجبات متساوين فى القوة والحرية ..

ووسيلة التحرر من كل سيطرة أجنبية هى : الجلاء ..

ووسيلة المساواة والمشاركة هى : الدستور ..

وأعلن فريد أن مطالب مصر هى : الجلاء والدستور .. لا ترضى بأحدهما بديلا عن الآخر ، ولا تلهيها المطالبة بأيهما عن الثانى .. هما سويا ، هما معا ، لغاية واحدة فى طريق واحد ..!

تلك هى الاهداف التى وضعها محمد فريد .. وانظر بعد ذلك الى وسائله لتحقيق هذه الاهداف : إنها تعليم الشعب على قدر الطاقة ليكون أكثر بصرا بحقوقه ، وتكتيله فى تشكيلات ليكون أكثر قوة وارتباطا ، ثم توجيهه الى هذه الاهداف فى قوة متدرجة منظمة راسخة ..

لقد أنشأ فريد مدارس ليلية فى الاحياء الشعبية لتعليم الاميين الفقراء مجانا .. وعهد بالتدريس فيها الى رجال الحزب الوطنى وأنصاره .. فكنت ترى المحامى الكبير أو الطبيب الناجح ، يخصص من وقته ساعة أو بعض ساعة كل مساء ، يقف فيها فى حجرة ضيقة خشنة بسيطة يعلم الفقراء مبادىء القراءة والكتابة وجغرافية بلادهم وتاريخها .. وأنشأ أول الامر أربع مدارس فى بولاق والعباسية والخليفة وشبرا ، ثم انتشرت مثيلاتها فى الاقاليم .

وضع فريد أساس حركة النقابات ، فأنشأ أول نقابة للعمال فى سنة ١٩٠٩ وهى نقابة عمال الصنائع اليدوية ووضع لها قانونا وأنشأ لها ناديا ، ثم انتشرت النقابات ..

ثم اتجه الى الزحف السياسى.. دعا الوزراء الى مقاطعة الحكم وقال : « من لنـا بنظارة (أى وزارة) تستقيل بشهامة وتعلن للعالم أسباب استقالتها ؟ لو استقالت وزارة بهذه الصورة ولم يوجد بعـد ذلك من المصريين من يقبل الوزارة مهما زيد مرتبه ، اذن لأعلن الدستور .. لنلناه على الفور .. » .

وعرفت مصر ، لاول مرة ، المظاهرات الشعبية المنظمة ، كان فريد يدعو اليها ، وتجتمع فى حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ، ثم تسير الى قلب القـاهرة هاتفة بمطالبها ، مشـتبكة بالبوليس ، مضحية بالعشرات ..

وضع صيغة موحدة للمطالبة بالدستور ، وطبع منها عشرات الآلاف ، ودعا الشعب الى توقيعها وارسـالها اليه ليقدمها الى الخديو كى تكون حركة جماعية تطالب «بانشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف ويساعدكم على ترقية البلاد .. وأنت يا مولاى الامير خير من يقدر الدسـتور قدره .. » . ونجحت الحملة ، وذهب فريد الى القصر يسـلم أول دفعة من التوقيعـات ٤٥٫٠٠٠ توقيع ، ثم الدفعة الثانيـة ١٦٫٠٠٠ ، ثم ...

وفى شوارع القطر سارت المظاهرات تنادى بالدسـتور لاول مرة .. لا يذهب الخـديو الى مكان الا لتتهاطل عليـه بطاقات مكتوب فيها « تكرموا بمنحنا الدستور » ، ولا يدخل شـارعا ألا يهتف فى وجهه الناس : الدستور يا أفندينا ..

فهل يترك الاسـتعمار وسـلطة الفرد ، هذا الموكب الحافل يمضى ؟.. كلا ..

فما يكاد فريد يصـل الى القـاهرة ، حتى تستدعيه النيابة لتحقق معه فى المقدمة التى كتبها لديوان الشعر ، ثم لا تمضى أيام حتى تحيله الى محكمة الجنايات لتحاسبه على هذه السطور التى كتبها بعنوان « أثر الشعر فى تربية الأمم ! » .

ماذا قال فريد فى هذه المقـدمة ؟ ، اى جريمة ارتكبها وهو يتحدث عن الفن الجميل ؟ ، لم يقل أكثر من أن الشعر يجب الا يكون مجرد كلام فارغ عن جمـال الطبيعة ، أو نفاق رخيص فى

مدح الملوك والوزراء ، بل يجب أن تكون له ـ كأى فن جميل ـ غاية اجتماعية تنفع الناس ، وتدفع المجتمع الى امام ! « لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد اماتة الشعر الحماسى ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد والاطراء الفارغ للملوك والامراء والوزراء . وابتعادهم عن كل ما يربى النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال ، كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد فى الدنيا، والحض على الكسل . وانتظار الرزق بلا سعى ولا عمل ..!

ثم « .. تنبهت لذلك الامم المغلوبة على أمرها . فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والاناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين ..» . فالفن اذن يجب أن يكون للجميع .. الجاهل والمتعلم على السواء .. وليس ذلك كلاما نظريا ، فهو يضرب لنا مثلا واقعيا مشجعا « .. فمما يزيد سرورى : ان شعراء الارياف وضعوا عدة أناشيد وأغانى فى مسألة دنشواى . وفى مصطفى كامل باشا ، وفى موضوع قناة السويس ورفض الجمعية العمومية لمشروعها ، وأخذوا ينشدونها فى سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة !.. وهى حركة مباركة ، تبشر باقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد .. باذن الله » .

هذا الرأى لم يعجب النيابة العامة ، ولا وكيل النيابة توفيق نسيم !.. وهو ـ فى الحقيقة ـ لا يعجب الكثيرين من الناس ـ حتى الآن ـ ومنهم الفنانون الكبار ! فأنت تسمع عن مدرستين فى الفن والادب : مدرسة تقول ان « الفن للفن » ومدرسة تقول ان الفن للمجتمع .. وأصحاب مذهب «الفن للفن» يعتقدون أن الفنان ـ كاتبا أو شاعرا أو رساما ـ ليس له أن يهتم بمشاكل الناس السخيفة ، وهمومهم الثقيلة .. انما مهمته أن ينتج لنا شيئا جميلا ؛ فحسب .. شيئا نجد فيه المتعة ، والتسلية ، وتزجية الفراغ ، شيئا للزينة والتظاهر تماما كالمجوهرات للنساء المترفات . أما أصحاب الرأى الثانى فيقولون : أن الفن يجب أن تكون له رسالة أسمى من مجرد الامتاع . وأن الفن يجب أن يقدم الى جمهوره شيئا يمتعه ويفيده ، شيئا يعمق

احساسه بالحياة ، ويدفعه الى التقدم والارتقاء : ولم يكن وكيل النيابة ـ لسوء الحظ ـ من المؤمنين بهذا الرأى ، بل كان يفضل ـ وهو يمثل حكومة مستبدة ـ ألا تكون للفن رسالة أكثر من تسلية النـاس ، وحملهم على الاستكانة ، وصرفهم عن حقيقة مشاكلهم ..

ووقف توفيق نسيم فى الجلسة يصب غضبه وغضب حكومته على فريد : « فريد بك الماثل أمامكم هو صاحب المقالة الاولى ، دفعته سورة الحمـاس فأطلق العنـان لدوافع النفس ، وصـدر مقالته بذكر الخطوب والحروب . ودعا الشعراء الى اجتناب مدح الوزراء ! ولم ير بعين بصـيرته أثرا فى النفس الا لذلك الشـعر الذى يشجع على القتال .. لم لا يكون الشعر ذلك الخيال الذى يرى الانسـان الطبيعة بجمالها ، وينظم فى المواضيع الشريفة كتثقيف العقول وتهذيب النفوس ؟ لماذا تكون تربية الامم بالشعر الحماسى ..؟

« ما خطب فريد بك وماذا يريد ؟ يريد أن يدخل الوطنيـة فى القلوب ، ولكن كيف يريد ذلك ؟.. أيريد أن يدخلهـا على يد الفاياتى ، ذلك الرجل الذى أضناه الجوع وأرهقه الظمأ !؟ فلم يجد ما يدفع به أذاهما عن نفسه الا أشعاره التى سود بها صفحات كتابه ، والله يعلم أنه لم يسود الا صفحات قلبه الأثيم ؟.. أم يريد أن يدخلها على يد أولئك الشعراء الذين يفرحون بصرخة أو كلمة فى فضاء المحافل ممن تلعب الوطنية بفؤاده من شدة التحميس ، كما تلعب الكأس برأس صاحبها ! » فالمبالغة فى الوطنية فى رأى وكيل النيابة كالخمر تذهب بالعقول وهو لذلك يختم مرافعته قائلا لمحمد فريد : « فلتكن هذه الدعوى الحاضرة لك أنت أيها الواقف أمام القضاء عبرة ونذيرا للمستقبل ، وليكن اليوم عظة للغد ، ليكفك الله بعد ذلك شر ما تأتى به الخطيئات ! ! » ..

بماذا يرد ذلك الرجل الواقف فى قفص الاتهـام ، بطربوشـه المائل ، وشاربه الوقور ، ونظارته المذهبة ، والياقة المنشاة العالية والطلعة المهيبة ؟.. ماذا يقول ، والانظار كلهـا فى القـاعة تلهث متعلقة به ؟ انه يرفض الدفاع عن نفسه بكلمة واحدة .. وقبل ذلك رفض أن يدافع عنه أى محام .. انه يزدرى كل هذه التمثيلية ويقف أمام قضاته هادئا ، صامتا ، بلا دفاع ..!

وماذا تريد منه أن يقول ؟ هل يتنصل من تهمة الوطنية ؟ هل يعترف بأن المبدأ الذى يعتنقه جريمة ؟.. أم هل يمن على المصريين ويتحدث عن جهاده ، وعمره الذى يبذله من أجلهم ..؟

لاشىء من ذلك قط .. فهو الصمت البليغ ..

وخلت المحكمة للمداولة فلم يطف بخاطرها سبب واحد للرأفة .. بل وجدت أن « وفرة معارفه وسعة تجاربه » تجعله أكثر تقديرا وأعظم مسئولية ! » أى تستوجب تشديد الحكم .. وخرجت الى القاعة تنطق بالحكم : الحبس ستة شهور .. ! ووجمت القاعة فى لحظة الصدمة ، ثم ارتفع البكاء ، أجهش المتفرجون ، والجنود المدججون ، ارتفع النحيب من كل صدر فلم تبق الا القضبان ، والواقف خلف القضبان ، الذى التفت الى الحاضرين ولامهم فى جلال على هذا البكاء ، وأدار للجميع ظهره ، يحوطه الجند ، يخطو خطوات ثابتة الى السجن ، فقد كان السجن أحب الى نفسه مما يدعونه اليه .. !

وذهب فريد مخفورا الى سجن الاستئناف فى باب الخلق ، واصبح اسمه السجين رقم ١٩٨ . الزنزانة ٤٤ ! . وبدأت « المفاوضات » معه ..

يروى عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « جاء كولسن باشا مدير مصلحة السجون الى محمد فريد وخلا به فى غرفته وسأله عما يحتاج اليه من أسباب الراحة ، ثم أمر عبد الرحمن افندى سرى مأمور السجن بالابتعاد عنهما ففعل ، وبدأ كولسن باشا يتحدث اليه بالفرنسية قائلا : « اننى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك » فأجاب فريد « ان ما تطلبه مستحيل ! » فعدل كولسن باشا وقال : « اننى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك »

فرفض .. فقال له كولسن باشا « أنت اذن تريد قضاء الستة شهور فى السجن » فقال الزعيم « نعم ، وأزيد عليها يوما لو أردتم !! . » ».

« وأكثرت الصحف ـ وبخاصة الجريدة وكان رئيس تحريرها أحمد لطفى السيد ـ من التحدث عن العفو عنه والدعوة اليه ، فاستدعى فريد من قال له : « أرجو أن تبلغوا لطفى السيد بك ان يتحاشى طرق هذا الموضوع ، فان هذا ما لا أقبله ولا أرغب فيه » .

« وبعد بضعة أسابيع زاره فى السجن الدكتور عثمان بك غالب موفداً من قبل الخديو ، يعرض عليه من جديد مسألة العفو وقال له : أن الخديو مستعد للعفو عنه اذا قدم طلباً بذلك .. فقال فريد « أنا لا أطلب العفو ، ولا أسمح لاحد من عائلتى بطلبه عنى ، واذا صدر العفو فلن أقبله !! » .

ومرت الشهور الستة ، وجاء يوم ١٧ يوليو الذى يجب أن يفرج عنه فيه ، وتجمع الناس فى ميدان باب الخلق ، وأقبل الليل ،وجلس الناس على الارصفة والمقاهى ، وناموا بجوار الجدران ، وعيونهم لا تبرح باب « المحافظة » الكئيب ، ويئست السلطة من انصراف الناس ، فلجأت الى حيلة أخرى تتلافى بها احتفال الناس بخروج الزعيم ، اذ خرجت فى نفس الوقت سيارتان مغلقتان ، متشابهتان ، وانطلقت كل منهما فى طريق ، وحار الناس لحظة ، فى أية عربةجلس فريد ، ثم لمحه واحد من الناس فصرخ ، وجرى خلفه الباقون ، وكانت الساعة الخامسة صباحا ، وتيقظت المدينة على مظاهرة مبكرة ، تتكاثر وتتسع ، حتى وصل فريد الى بيته فى شبرا ..

ماذا يقول .. ؟

انه يجلس الى مكتبه ويكتب « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشعر ابدا بالضيق الا عند اقتراب اجل خروجى ، لعلمى أنى خارج الى سجن آخر » وهو سجن الامة المصرية ، الذى تحده سلطة الفرد ، ويحرسه الاحتلال ! » .

ثم يمضى فى هذا المقال ، الذى نشرته اللواء فى اليوم التالى ، قائلا : « حقيقة ، لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت فيها مائة وستا وسبعين ليلة كاملة ، لعلمى أنى خارج الى سجن أضيق ، ومعاملة أشد .. أن اصبح مهددا بقانون المطبوعات ، ومحكمة الجنايات ، محروما من الضمانات التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطرق ، فلا أثق أنى أعود لعائلتى ان صدر منى ما يؤلم الحكومة من الانتقاد ، بل ربما أوخذ من محل عملى الى النيابة ، فالسجن الاحتياطى ، فمحكمة الجنايات ، الى السجن النهائى ! وستبقى حالتنا كذلك حتى نسترد حريتنا » .

وكأن فريد فى هذه الكلمة الحزينة كان يقرأ الغيب .. فبعد ثمانية

أشهر فقط من مبارحة هذا السجن سيصنعون به هذا الذى ينبأ به ، وسيترك عائلته ، الى غير عودة .. !

ولم يكن غريبا أن يتنبأ فريد بما سوف يحدث له ، فهو لاينوى التخلى عن رسالته ولا العدول عن المطالبة بالجلاء والدستور .. والانجليز والحكومة المصرية على السواء لاينوون أن يحققوا الجلاء ولا الدستور ، فمن المستحيل اذن أن يتركوا هذا الداعية يثير الناس، وينشر الوعى ..

وفى شارع الصنافيرى ، بالقرب من مبنى قسم عابدين الحالى ، وقف محمد فريد فى أنصاره يخطب وكان اليوم يوم جمعة ، ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ ، وكان خطابه شاملا تحدث فيه عن الجلاء والدستور ، والاستعمار الاقتصادى الاجنبى ، والحالة التعسة التى يعيش فيها العامل والفلاح :

« انظروا الى تحكم الشركات الاجنبية فى العمال ، انظروا الى الفلاح ، وما يفرضه عليه مالك الارض من الايجار الباهظ ، تجدوا انهم فى أحط دركات الفقر ، العامل لا يحصل على قوت يومه الا بعد أن يشتغل اثنتى عشرة ساعة كل يوم ، والفلاح لا يصل الى مايسد الرمق من أردأ انواع الخبز بلا ادام الا بشق الانفس، وكل ذلك ناشيء عن فقدان مبدأ الاجتماع وفقدان التضامن بينهم ، والاحتلال يريد أن تبقى تلك الطبقة كقطيع الغنم ، يؤمرون فيطيعون ، عائشين عيشة السائمة ، جاهلين حقوقهم وحقوق بلادهم » .

ومرة أخيرة ، أكد فى اصرار لا يتزعزع ، أنه « لا دواء لهذا الداء العضال ، الا الدستور » .

ونشطت الحكومة للعمل ، ففى يوم ٢٥ مارس استدعته النيابة للتحقيق معه ، وهاجم البوليس بيته يفتشه ، ويقلب أثاثه ، ويمزق أوراقه ، ويروع الاطفال ، وكان وزير « الحقانية » فى ذلك الوقت : سعد زغلول !. وكان وكيل النيابة الذى يحقق مع محمد فريد : على ماهر !

وكان سعد زغلول وزير العدل فى ازمة مع الانجليز لبعض تصرفاتهم التى يتخطونه فيها .. وكان التحقيق مع فريد أحد هذه التصرفات ، اذ اتصل رئيس الوزارة ــ محمد سعيد باشا ــ بالنائب العام راسا

للتحقيق مع فريد ، وتراكمت أسباب أخرى فاستقال سعد زغلول من الوزارة ..

وذاعت هذه الانباء ، وأدرك فريد وأصحابه أن النية مبيتة على سجنه وتقييد حريته بأى شكل ، وأصبح عليه أن يختار ، أصعب اختيار تعرض له فى حياته : هل يبقى فى مصر ، مغامرا ، بحريته التى سوف تضيع فلا يستطيع أن يصنع لوطنه شيئا ؟ أو يفر بعقيدته من مصر ، مضحيا بوطنه وأسرته ، محتفظا بحريته .. ؟

كان عليه أن يختار بسرعة ، وأن يتخذ قرار العمر كله فى دقائق ، فالبوليس قد يطرق الباب فى أية لحظة ، وامر القبض عليه مكتوب فعلا . ولم يكن بد من أن يختار الطريق الاصعب الابهظ ، كما صنع دائما : وآثر الحرية ..

وإخفى النبأ عن الجميع حتى أقرب الناس اليه ، وسهر آخر ليلة له فى أرض وطنه والبروق تخطف فى باطنه ، فلما أشرق الفجر أيقظ زوجته ، وأنبأها بالقرار الخطير فى كلمات قليلة هامسة ، وهم بأن يوقظ بناته وأبناءه ليودعهم ، ولكنه خاف ان يضعف ، وخرج مسرعا الى محطة القاهرة ، وركب قطار السابعة صباحا الذاهب الى الاسكندرية ، بحجة أنه ذاهب للمرافعة فى بعض القضايا ، ومن محطة الاسكندرية قصد الى الميناء فورا ، زاعما هذه المرة أنه سيودع صديقه « اسماعيل بك لبيب » المسافر على الباخرة الروسية « الملكة أولجا » ولم يقطع لنفسه تذكرة حتى لايكتشف الامر ، واعتكف فى حجرة صديقه اسماعيل لبيب ساعات قليلة ، لا يجسر فيها على اختلاس نظرة واحدة الى وطنه ، فلما أقلعت الباخرة ، وأصبحت نقطة صغيرة لايحيط بها الا البحر والسماء ، أبرز نفسه لقبطانها ، وشرح له الموقف باختصار ، وانحنى ربان السفينة « الاجنبى » للمهاجر الكبير ، وعامله طوال الرحلة باحترام شديد .. !

وفر الصيد الثمين من قبضة الحكومة ! ولكن الحكومة يجب ألا تتقهقر .. فالمحكمة يجب أن تعقد ، والحكم يجب أن يصدر ، ولو غيابيا .. ثم ان هاهنا أنصاره لم يبرحوا مصر بعد ، هذا على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ومدير جريدة « اللواء » ، وهذا اسماعيل حافظ صاحب جريدة العلم ، يمكن تقديمهما الى المحاكمة بتهمة نشر الخطبة فى جريدتيهما .. الخطبة التى نادى فيها فريد بالجلاء والدستور ..

وانعقدت محكمة الجنايات ، بعد أربعة أيام فقط من هجرة فريد ، برياسة مستر دلبروجلى وعضوية على بك ذو الفقار ، وتوفيق باشا رفعت .. وقد مثل النيابة فى قضية فريد الاولى توفيق نسيم الذى أصبح فيما بعد رئيسا لديوان الملك .. فمن يمثل النيابة هذه المرة ؟ « بطل » آخر سوف يصبح أيضا ناظرا لخاصة الملك : زكى الابراشى ..

أما الدفاع عن فريد وصحبه فقد قام به رجلان : عبد العزيز فهمى ومحمود بك أبو النصر ..

ووقف ممثل الاتهام فبدأ مرافعته بالحملة على « الصحافة التى تتعدى حدودها فتنقلب شرا على الامة ».. ثم بدأ يناقش خطبة فريد ليثبت أنها تنطوى على أكثر من جريمة : فقد قال فريد فى دفاعه أنه لم يفعل أكثر من انتقاد الحكومة .. ولكن ممثل النيابة يرى انه قد تخطى حدود النقد المباح « .. أنه يرمى الحكومة بعرقلة المشروعات عمدا مع سوء القصد ، فى حين أن النقد المباح هو ذكر مشروع من المشروعات وذكر ضرره ووجوه تلافى هذا الضرر .. » .

ثم ان فريد قد طالب بالدستور .. وهذا ــ فى رأى ممثل النيابة ــ هو الجرم الاكبر : « لقد قال فريد بك : انه لا دواء لهذا الداء الا بالدستور .. وهذا هو قصده بينه صراحة فى قوله ! .. وقد يقال أن فريد بك حسن القصد بالنسبة لحزبه وأمته ، ولكن لا يمكن ان يقال الا انه سيىء القصد بالنسبة لحكومته .. ؟ » .

هل فهمت ماذا يريد ممثل النيابة أن يقول ؟ .. أنه يرى أن مطالبة فريد بالدستور قد يكون القصد منها مصلحة أمته ، ولكن هذه المطالبة لا شك ضد مصلحة الحكومة ! .. وعلى هذا يجب أن يعاقب فريد .. !

وألقى عبد العزيز فهمى مرافعة بليغة ، استهلها قائلا : « حين وكلت فى هذه القضية كانوا يقولون لى : كيف تتوكل فيها ؟ .. الا ترى أن المادة ١٥١ لا حد لها ؟ .. فكنت أهز كتفى للقائلين وجئت واثقا بعدالتكم معتقدا أن موكلى سيخرج من هذه التهمة بريئا .. وان لى سؤالا أحب أن القيه على حضراتكم : هل للحكومة ان تتصرف تصرفا مطلقا بغير انتقاد ؟ .. لقد كفتنى النيابة مئونة هذا الجواب حين قالت ان الانسان فى هذه الحياة سلسلة حوادث يمكن انتقادها .. » .

وخلت المحكمــة للمداولة ثم خرجت لتحكم عى فريد ــ غيابيا ــ بالحبس سنة .. مع الشغل ! .. وعلى اسماعيل حافظ وعلى فهمى كامل بالحبس ثلاثة شهور ..

وهكذا كان يطارد فريد لانه ينادي بالجلاء ، والدستور ، وبرسالة نبيلة للفن الجميل .. ويحرم لهذا السبب من الحياة فى وطنه بينما يترك وطنــه مرتعــا للنصــابين العالميين واللصــــوص الدوليين ، والمستبدين المحليين . .!

وصدرت « اللواء » فى اليوم التالى ، تقول .. والدموع فى مآقيها :

« سيرى أيتها الامة ولا تقفى فى الطريق أبدا .. سيرى الى حيث تجدين الرحمة جزاء ، والحرية رداء ..

سيرى فان لك أسوة حسنة بكل شعب أراد الحياة ..

سيرى فان فى الجهاد للذة غريبة دونها أى لذة فى الوجود ..

ســيرى ولا تتخلفى فى الطــريق ، ولا تقــولى أبدا : لقــــد طال الانتظار ! .. » .



امبراطورية زفتى !!



يوسف الجندى



الناسعة ، واليوم الاحـــد ٩ مارس .. سنة ١٩١٩ ، صباح ليس باردا ولا حارا ، ولكنه دافىء لذيذ ..

وفى فناء « مدرســـة الحقوق » بالجيزة ، يتجمع الطلبـــة بسرعة .. وقد دق الجرس مؤذنا ببدء المحاضرات ولكن المدرجات بقيت خالية ، وظلوا يتجمعون فى الفناء ، وأحاديثهم ترتفع حرارتها وتكاد تلتهب .. فقد اعتقل سعد زغلول وبعض أصحابه .. والنبأ لم تنشره الصحف ، فالرقابة مفروضة .. ولكن بعض الطلبة رأوه بأعينهم ، عصر الامس ، يركب سيارة انجليزية أمام بيت الامة ، والجنود الانجليز من حـــوله قد رشقوا الحــراب فى أطراف البنادق ، والناس طول الليل يتناقلون النبأ .. والمدينة كلها باتت مؤرقة من الجزع ..

ماذا يصنعون .. ؟

ان عميد المدرسة ـ مستر دالتون ـ يخرج اليهم محاولا أن يكبح العاصفة قبل أن تهب ..

قال لهم : اتركوا السياسة لآبائكم ..

فقالوا له : ان آباءنا باتوا فى السجون .. !

قال لهم : عودوا الى دروسكم ..

فأجابوه : لا ندرس القانون فى بلد تداس فيه القوانين .. !

نعم .. ولكن ماذا يصنعون .. ؟

انهم لو سكتوا الآن فقد ضــاعت القضية لســـنوات طويلة .. هل يخرجون فى مظاهرة ؟ .. الى أين ؟ .. والشوارع التى تعج بجنود الامبراطورية المنتصرين ؟ والشعب الذى طال رقوده فمن غير المؤكد أن يثور ؟ ان المسألة كلها تبدو تجربة جديدة ، غريبة ، ليس لها سابقة واحدة يمكن أن تكون هدى ..

فليسألوا اذن أعضاء الوفد الباقين .. ويطير بعضهم الى بيت الامة .. وفى الشرفة يلقون عبد العزيز فهمى زميل سعد القديم فى الجمعية التشريعية .. ناحلا ، مهزوزا ، تالف الاعصـــاب .. وينفضون عليه أنبـــاء زملائهم وعزمهم على الخروج .. ويفلت زمام عبد العزيز فهمى « انكم تلعبون بالنار ! .. دعونا نعمــل فى هدوء ولا تزيدوا غضب الانجليز ! .. »

ويعود الطلبة مقهورين ، مغمومين ، يتعثرون .. فماذا يقولون لزملائهم ..؟

ولكنهم لا يمضون قليلا حتى تترامى اليهم أطـــراف هتاف : يحيا سعد ! يحيا الاســتقلال ! ثم تطالعهم وجوه اخوانهم يمــلأون الطريق ..

لقد قلق الطلبة ولم يصبروا .. واعتلى بعضهم النوافذوالمقاعد وبدأ يخطب .. ولم ينتظـــروا رجع المشورة فتدفقوا من باب الجامعة خارجين ، هاتفين ..

وانفجرت الثورة .. أول ثورة شعبية منذ قاوم أهل القاهرة نابليون ؟ ..

فبعد طلبة الجامعة ، أضرب سائر الطلبة فى جميع المدارس ، ثم أضرب سائقو الترام ، والاتوبيس ، والتاكسى ، ثم المحامون .. وسجل قسم السيدة زينب فى اليوم التالى مصرع أول شـــهيد ــ مجهول الاسم ــ وبعد يومين صدر أول بلاغ حربى يطلق على الثوار اسم « الرعاع » ويؤكد أنه « لم تحدث غير ست وفيات و ٣١ اصابة ! .. » .

ثم مضت أرقام القتلى ترتفع :

طنطا فى ١٢ مارس : ١٦ قتيلا و ٤٩ جريحا ..

اسكندرية فى ١٧ مارس : ١٦ قتيلا و ٢٤ جـــريحا و ١٥٤ معتقلا ..

دمنهور فى ١٧ مارس : ١٢ قتيلا ..

بور سعيد فى ٢١ مارس : ٧ قتلى و ١٧ جريحا ..

وهذه ــ كلها ــ أرقام البلاغات الرسمية الانجليزية فقط ..

وتحولت هذه الارض الطيبة كلها الى بركان رهيب لا يكف عن الاشتعال ..

شوارع القـــاهرة كلها تموج بسيل من المظـــاهرات : هذه مظاهرات الســـيدات ، لابسات اليشمك والحبرة فى شـــارع ابراهيم .. وطلبة الازهر يتلقون الرصـــاص ويخطفون المدافع الرشاشة من الجنود الانجليز فى شوارع الغورية .. وعمال عنابر

السكك الحديدية يزحفون على ميدان باب الحديد .. والاهالى يحفرون الخنادق فى الحسينية والجمالية وباب الشعرية .. ربما فى نفس الاماكن التى قاتلوا عندها جنود نابليون منذ أكثر من مائة سنة ..

وانشأ الانجليز محكمة عسكرية فى قسم الازبكية تحاكم الثوار وتحكم عليهم فورا بالسجن والجلد .. ولم تكف محكمة واحدة فأنشأوا محكمة أخرى فى الخليفة ثم فى القناطر الخيرية ثم بنها .. ثم تعبوا من انشاء المحاكم ..

وأخرجت شركة الترام بضع عربات يقودها الجنود الانجليز وتحرسها سيارات مسلحة بالمدافع الرشاشة فامتنع الاهالى عن ركوب الترام .. وأصبح منظرها ـ وهى تسير خالية الا من الجنود الانجليز ـ مضحكا .. ولجأ المصريون جميعا الى استعمال العربات « الكارو » .فكنت ترى كبار الموظفين الى جانب بنات البلد يجلسون على عربات الكارو ويتبادلون آخر الانباء ..!

واندلعت الثورة فى الاقاليم كلها اندلاعا لم يكن يحلم به أحد ..

خرج الفلاحون من الحقول واقتلعوا خطوط السكك الحديدية .. اقتلعوها أولا بين طنطا وتلا ثم انتشرت العدوى .. وانقطع خط الصعيد كله .. وأحرقت محطات السكك الحديدية .. وأصبح السفر متعذرا آلا بالمراكب فى النيل والترع .. وأنذر الانجليز باحراق أقرب قرية من كل نقطة يقطع فيها الخط .. فلم تنقطع المقاومة ..

وفى غمرة هذا كله .. نجد أعضاء الوفد ، والوزراء السابقين ينظرون الى العاصفة فلا يدركونها أول الامر ، ويحسبونها مجرد شغب عابر ، فيصدرون بيانا « .. ان الاعتداء على الانفس أو على الاملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية ! .. وأن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضررا واضحا اذ يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم .. ويوقف حركة نقل المحاصيل والارزاق .. ومثل هذا العداء يضيع على المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم ! ..»

ولكن العاصفة ترفض هذا المنطق ولا تقف عنده .. فى اليوم التالى يهجم الاعراب على مراكز البوليس فى الفيوم وتدور معارك عنيفة يقول البلاغ الرسمى انه سقط فيها ٤٠٠ من القتلى والجرحى .. !

وفى مدن الصـــعيد .. ينكمش الانجليز ويتحصـــنون فى بيت ، أو مدرسة ، ويحاصرهم الاهالى .. ويرسـل الانجليز طالبين المدد ..

وفى أسيوط تقع أعنف الحوادث .. هجم الثوار على مراكز البوليس واستولوا على الســلاح .. وتكونت لجان من المحامين تحافظ على الامن وتباشر مسئوليات الحكم ، وانكمش الانجليز من مدنيين وعســكريين فى احدى المدارس .. والاهالى يشـنون عليهم الهجمات المسلحة يوما بعد يوم ..

وأرسل الانجليز طائرتين قذفتا أسـيوط بالقنابل فلم يتراجع الثوار ..

وأرسلوا قطارا مسلحا شاصا بالجنود .. وعند قرية ديرمواس هجم عليه الفلاحون وأوقفوه ، ودارت معركة رهيبة سقط فيها القواد والضباط الانجليز بالعشرات قتلى ..

ولجأ الانجليز الى ارسال سفينة مسلحة فى النيـل لتصل الى أسيوط ، ومرة أخرى ، عنـد ديروط ، هبط الشـــاطىء آلاف من الفلاحين بالبنـــادق القديمة والعصى يتصدون للسفينة .. وسبح مئات منهم فى المـاء مستبسلين يريدون الاســتيلاء على السفينة ذاتها ..

وتفلت السفينة من هذه المعركة . وتتعرض لهجوم آخر مشابه عند « نزالى جنوب » .. قبل أن تصـل منهكة ، مثخنـة بالجراح ، لانقاذ المحاصرين فى أسيوط ..!

تلك كلها — أيها القــارىء — لمحات يسـيرة من تلك الثورة العظيمة ..

وتاريخ هذه الثورة لم يكتب بعد حتى الآن .. لم يحاول أحد المؤرخين أن ينقب وراء سر هؤلاء الفلاحين الذين حاربوا فى ديرمواس وحاولوا الاستيلاء على السفينة المسلحة فى ديروط ..

ان الكتب تقول ان هذا حدث عفوا .. وارتجالا بحتا .. وهذا مستحيل .. !

لا بد أنه كان هناك من ينظمون ويدبرون ويقتحمون المخاطر حتى تهاجم هذه السفينة مثلا فى موضعين متواليين ، بنفس الاسلوب ، على شاطىء النهر ..

ولسنا نريد لهذا التاريخ أن يكتب ، وبأدق التفاصيل ، لمجرد المباهاة ! .. ولا لتمجيد هؤلاء الأبطال .. فقد أدوا واجبهم ودفعوا أرواحهم ومضـوا .. ولكننا نريد أن يكتب هـذا التاريخ لتعود الى هذا الشعب ثقته بنفسه ، وليسكت الذين ما زالوا يؤمنون بأن هذا الشعب خامل خانع ، لا يمكن أن يثور .. لا يمكن أن يستفزه طغيان ، أو ينتظمه كفاح ..

وقد حاولت أن أقدم لك ــ أيها القارىء ــ صورة عن احدى قصص الكفاح المنثورة بالمئات فى قرى الريف .. واخترتها لانهـا طريفة فى نوعها ، ولانها تدل على كثير ..

كانت هذه القصة فى « زفتى » ..

و « زفتى » و « ميت غمر » قريتان متقابلتـــان ، يفصلهما النيـــل ويربطهما كوبرى عتيق .. وفى كل منهما مكتب محاماة لشقيقين شابين : يوسف الجندى فى ميت غمر وعوض الجندى فى زفتى .. كلاهما من شباب سعد .. وكلاهما له سابقة حماسة حوسب عليها .. ففى سنة ١٩١٣ دخـــل عوض الجندى قاعة الجمعية التشريعية وصفق لسعد ، وتضارب مع عضو من مؤيدى الحكومة لانه كان يقاطع سعد بكثرة .. وقبضوا عليه ، ووجهوا اليه تهمة تعليق منشـــورات على أسوار البرلمان .. ويوســف ــ الاصغر ــ فصلوه فى سنة ١٩٢٤ من كلية الحقوق ، لانه حرض الطلبة على الاضراب .. احتجاجا على اعـلان الحماية الانجليزية عقب ابتداء الحرب ..

ومنذ بدأت حـــركة الوفد والاثنـــان يترددان بين القـــاهرة والريف .. ولمع يوسف بالذات فى جلســـات ثائرة فى محـــلات « جروبى » ومجـــادلات فى حديقة بيت الامة ، وفى خطب عنيفة على منبر الازهر .. الذى كان قاعدة الثورة ، وعرفه ســـعد .. والكبار من أعضاء الوفد .. عرفوه ثائرا لا يهدأ .. ليس فى وجهه الاسمر الا شىء واحد : العنـــاد ، ولا يخرج من كيانه النحيل الا أفكار متطرفة ..

وانفجرت الثورة ويوسف الجندى فى قريته زفتى ، واتجهت اليه أنظار القرويين ينتظرون منه أن يصنع شيئا ، ولكن ها هنا فى جوف الريف لا يوجد انجليز يقاتلهم الفلاحون .. والسكك الحديدية قد قطعها الفلاحون من القرى المجاورة فعلا ومع ذلك فلا بد من عمل شىء خطير ، ينطوى على معنى الثورة ..

وقرر أن تعلن زفتى وميت غمر استقلالهما .. وأن ترفضا الخضوع لأى سلطة أخرى ·· ثم ليأت الانجليز ··

وبدأ الثائر الصغير يعمل .. أعلن عن تشكيل لجنة الثورة من بعض الاعيان ، والافندية المتعلمين ، والتجار الصغار .. عرفنا من أسمائهم : عوض الكفراوى ، الشيخ مصطفى عمايم ، ابراهيم خير الدين ، أدمون بردا ، محمد السيد ، محمود حسن .. واتخذت لجنة الثورة مقرا لها قاعة واسعة فى الدور الثانى من مقهى يملكه يونانى عجوز ، اسمه « قهوة مستوكلى ! » ..

واجتمعت لجنة الثورة وقررت أن تبدأ بوضع يدها على السلطة الفعلية بالاستيلاء على مركز البوليس .. وزحف يوسف الجندى الى المركز على رأس مظاهرة ضخمة ضمت كل الرجال ، وجيوش الصبية الصغار .. القليلون منهم حملوا بنادقهم القديمة وتسلح الآخرون بالعصى وفروع الاشجار والفئوس ·· وشاءت الظروف أن تجنب الدولة الجديدة اراقة الدماء .. اذ كان مأمور المركز رجلا وطنيا اسمه « اسماعيل حمد » ومعه معاون بوليس اسمه « أحمد جمعة » وخرج المأمور الى المظاهرة ، وسلم يوسف المركز ، والسلاح ، وقيادة الجنود والخفراء .. ثم عرض خدماته عليه .. كمستشار للدولة الجديدة يشير عليها بوصفه خبيرا بأحوال الادارة فيها ..

واتجهت المظاهرة الى محطة السكة الحديدية والتلغراف فسيطرت على التلغرافات فورا ، واستولت على عربات السكة الحديد التى كانت واقفة مشحونة بالقمح ، تنتظر ارسالها الى السلطات الانجليزية ..

وبات على الدولة الجديدة أن تواجه مشاكلها الداخلية ! .. وجمع يوسف الاعيان ودعاهم الى التبرع ليصبح للدولة خزانة وكانت هناك حركة تبرعات أخرى جارية لتمويل الوفد ، وكان يجىء الى زفتى كل أسبوع مهندس فى طنطا يتسلم التبرعات المتجمعة ، اسمه عثمان محرم !وتبرع الاعيان أيضا للدولة الجديدة .. وكان قصد يوسف الجندى من ذلك أن يوجد عملا للايدى الكثيرة التى تعطلت لظروف الثورة ، فلا تتحول الى السرقة أو النهب .. فاستخدم الاموال المتجمعة ليوجههم الى بعض الاعمال المفيدة ..

وردموا البرك والمستنقعات التى تحيط بالقرية ، والتى يئس الاهالى من مطالبة الحكومة بردمها منذ عشرات السنين ..

وردموا الشوارع التى كانت تنشع بالماء اذا كان الفيضان وأصلحوا الجسور القريبة .. بل لقد أقامت « الدولة » كشكا خشبيا على ضفة النيل لتعزف فيه الموسيقى ..!

ثم جندت لجنة الثورة كل التلاميذ والمتعلمين الموجودين فى القرية وقسمتهم الى فرق : فرقة تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الامن .. وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسرب مواد التموين أو دخول الجواسيس ! وفرقة تشرف على عمليات الرى وتزويد الارض بالماء ..

وظهر أن فى قلب زفتى توجد مطبعة ! .. مطبعة صغيرة يملكها « محمد أفندى عجينة » أخذت تطبع قرارات لجنة الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس .. وقد ظلت هذه المطبعة بعد ذلك مؤسسة وطنية خطيرة فى حياة زفتى .. تطبع المنشورات السرية فى مختلف عهود الاقليات .. ولا تزال موجودة الى اليوم ..

وطارت الانباء الى القاهرة .. وعبرت البحار الى لندن .. ونشرت « التيمس » فى صدرها أن قرية زفتى قد أعلنت استقلالها .. ورفعت على مبنى المركز علما جديدا .. !

ولم يكن نفوذ زفتى مقصورا على حدودها .. فقد كان بريق مقاومتها يرسل ضوءه الى القرى المجاورة فى صور أخرى .. فنحن نجد أحد البلاغات الانجليزية الرسمية يعلق على مذبحة ميت القرشى التى راح ضحيتها مائة قتيل بقوله ان « ميت غمر لا تزال مع زفتى وميت القرشى مركزا للتمرد والفتن فى هذه المنطقة » ..

وأعلن فى القاهرة أن فرقة كبيرة من الجنود الاستراليين سوف تذهب الى زفتى لتخضع القرية الثائرة .. وأدرك رجال الوفد مدى الخطر الذى يتعرض له يوسف ، فأرسلوا له الرسل والرسائل لكى يعود الى القاهرة .. وسافر الى زفتى أخوه عوض الجندى ــ وكان فى القاهرة ــ ولما كانت المواصلات مقطوعة والتنقل داخل القطر ممنوعا الا لمن تمنحه السلطات الانجليزية جواز سفر ! فقد ركب عربة كارو الى قليوب ، ثم مركبا نيليا الى بنها .. ثم عربة حنطور الى زفتى ..

وصل الى زفتى ليجد قاعة الثورة فى مقهى مستوكلى يسبح فى جوها دخان السجاير ، وليرى أخاه الصغير يوسف قد زاد نحولا ، واستطالت لحيته ، والاوامر تصدر من الغرفة متتابعة ..

وليرى الفلاحين يحفرون حول دولتهم الخنادق ، وينقلون اليها البنادق القليلة ، والذخيرة العتيقة التى لم تستعمل منذ زمان بعيد يستعدون للقاء الانجليز ..

وكان الانجليز قد خضعوا لثورة مصر ، فأعلنوا اطلاق سراح سعد وصحبه ، والسماح لهم بالسفر الى أوربا للمطالبة بالاستقلال .. ولكن لجنة الثورة ظلت فى زفتى قائمة ..

وأشرق الصبح على مدافع الاستراليين منصوبة ، وفوهاتها مسددة الى بيوت القرية ، وقد احتلوا فعلا محلج « رينهارت » ومدرسة « كشك » الواقعين عند أطراف القرية ..

ومرة أخرى ، خرج اسماعيل حمد يسير الى خطوط الاستراليين وقال لهم : ان الثورة فى مصر كلها تهدأ ومظاهرات الابتهاج قد حلت فى القاهرة محل اطلاق النار ، وأى طلقة الآن سوف تؤدى الى اشتباك .. والموقف فى زفتى هادىء تماما ، فاذا ظل الجنود معسكرين خارج زفتى ، وتركوا حركة التبرعات للوفد ماضية ، فهو كفيل بألا يقع من الفلاحين شىء ..

وكانت لجنة الثورة قد عرفت أن الفرقة الآتية أسترالية ، فأعدت منشورات بالانجليزية تقول لهم : « انكم مثلنا » ونحن نثور على الانجليز لا عليكم .. والانجليز الذين يستخدمونكم فى استعبادنا يجب أن يكونوا خصومكم أيضا ..!

وأرسلت المنشورات الى الاستراليين ، وقررت الفرقة ألا تدخل القرية ، وأن تبقى معسكرة بجوارها ..

واذ سكتت الثورة فى مصر كلها ، وباتت القرية تحت رحمة المدافع الانجليزية استيقظ الخونة ، الذين خافوا مغبة دخول الانجليز فأرادوا أن يتنصلوا من الآن ، والذين يريدون الكيد لمن تصدوا لقيادة الحركة ، أخذ هؤلاء وهؤلاء يرسلون خطابات الى السلطات فى مصر يبلغون عن أسماء الزعماء ، وكل من حمل معولا أو ألقى خطابا أو طبع بيانا أو ألهب السخط فى صدر فلاح .. وكان اسماعيل حمد — بخبرته الادارية — يعرف ماسوف يحدث .. فكان ينفرد بالخطابات البريدية كل ليلة فى حجرة مغلقة ، يفضها واحدة واحدة ، ويتخلص من كل رسالة تنطوى على وشاية أو كيد ..

وعلم الانجليز أن الفرقة الاسترالية عند حدود زفتى لم تدخلها .. وكانت المحاكمات قد بدأت تدور فى شتى أنحاء القطر لعقاب الثائرين ، فأرسلوا اليها تعليمات جديدة ..

وطلب الاستراليون تسليم ٢٠ رجلا من أهالى زفتى لجلدهم عقابا على هـذا العصيان •• وانعقـدت اللجنة لتواجه المأزق : أن تسلم ـ وبعد فوز الثورة ـ عشرين رجلا من أبنائها أو أن ترفض ، وتقاوم فتهلك القرية كلها تحت مدافع الانجليز •• وبعد بحث طويل أخذت اللجنة باقتراح لاسماعيل حمد : وسلمت القرية عشرين رجلا •• اختارتهم من الذين كانوا يرسلون خطابات الوشـاية والخيـانة الى الى الانجليز ••!

وجلد الانجليز عملاءهم ••!

وتلقت الفرقة من القاهرة أوامر أخرى •• تطلب ـ هذه المرة ـ تسليم يوسف الجندى ••

وقال أعضاء اللجنة ليوسف : اذهب الى مكان ولا تخبرنا به !

وتحت جنح الليل تسلل الثائر الى قرية « دماص » المجاورة •• وقبض الانجليز على بعض الاعضـاء •• واحتجزوا عوض الجنـدى رهينة حتى يقول لهم أين يوسـف •• فلم يطلقوا سراحه الا بعد أن تأكدوا من أنه حقا لا يعرف مكان أخيه •

وانسحب الاستراليون عائدين •

⊙❖⊙

أما يوسف الجندى فقد ظهر بعد خمسة عشر يوما من فراره فى القـاهرة •• يخطب فى « جروبى » الذى كان من منتديات الثورة ويحرض على استمرار النضال ••

أما « قهوة مستوكلي » فقد اندثرت مع الزمن ، وقامت مكانهـــا بعض المحلات التجارية ••

وأما كشك الموسـيقى فانه لا يزال هنـاك •• قائمـا فى مكانه القديم •• وقد حدث مرة واحدة أن فكرت الحكومة فى هدمه لغرض من أغراض التنظيم فاحتج أهالى زفتى بشـدة ، وطلبوا الاحتفـاظ بهذا الاثر الخالد من آثار ثورتهم ••

ومضت الايام والنـاس يتناقلون قصـة زفتى فيما يتناقلون من قصص الثورة ، ويضيفون اليهـا •• حتى تلقف القصـــة ممثـل كوميدى ـ على الكســار ـ فنسج حولها مسرحية ناجحة ، وأعطاها الاسم الذى اقترن بالقصـة بعـد ذلك •• اسم فيه ضحكة المصرى واعتزازه : « امبراطورية زفتى » ••!

الأمة .. بين سعد وعدلى



سعد زغلول

هذان الرجلان كل منهما جاء من نبع ، وسـار فى واد .. كل منهما كان يمثل تيارا معينـا .. فاتفاقهما تحالف بين التيـــارين ، وخلافهما صراع بين القوتين .. يكتب فيه النصر لتيار والهزيمة لآخر ، ومن النصر والهزيمة يولد التطور .

عدلى .. سليل الاسرة التركية العريقة ، وربيب الطبقة الحاكمة فعلا ، و « ابن الذوات » الذى ولد ليجد كل شىء مهيئا لاستقباله : التعليم الرفيع ، الآفاق الأوروبية الحديثة ، الصداقات الكبيرة التى تمهد سبل الوصول السريع .. فان حدث وذهب الى الريف ، فهو يذهب الى « أملاكه » لا الى « بلدته » ..

وسعد الفلاح ابن الفلاحين .. الذى نجد بين اخوته من يحملون أسماء « شلبى » و « ستهم » و « فرحانة » .!.. وان كان من طبقة متوسطة ميسورة الحال ..

عدلى الرقيق الانيق المرهف .. عيونه الحالمة وشـاربه المحفف ، وطربوشه المائل فى كبرياء .. عليه سيماء رجل مترف ، فى غنى عن « المطالبة » بأى شىء لان كل شىء لديه فعلا ..

وســعد الخشن العنيف .. عيونه المنتفخة وشـــاربه المنفوش وطربوشــه الذى يلبســه ملقى الى الوراء كما تلبس « اللبدة » أو « الطاقية » .. تصرخ هيئته بأنه رجل جاهـد واقتحم وطالب .. بعناد ..!

نعم .. لم يكن عدلى فى حاجـة الى « المطـالبة » بشىء .. فهو ابن الطبقة الحاكمـــة ، ولد ليحكم ! يمارس الحكم كالهـاوى وليس كالمحترف ، تستهويه من اللعبة رغبة « الاتقان » لا « الكسب » .

أما سعد فعلى العكس تماما .. كان عليه أن يقطع طريقا عنيفـا طويلا حتى يصبح ندا لعـدلى ، فهو يقضى طفولته لاعبـا مع أولاد الفـلاحين .. ويذهب فى صبـاه الى « الـكتاب » حيث يجلس على الحصير ويحفظ القرآن ويمد يده ليضربه « العريف » بالعصـا واذا تفوق أرسله أبوه الى الازهر فى القاهرة .. يلبس العمامة والكاكولة ، ويســكن فى « ربع » عتيق مع الآخرين .. يتسـكع فى الحوارى ويعيش أياما على الطعمية والفول النابت ! وهو لا يجلس الى أساتذة مطربشـين بل يتربع عنـد عمود فى الازهر يســتمع .. ولكنه يتشيطن ، ويبدأ فى « المطالبة » فيؤلف جمعية لاصلاح الازهر ..

ويتسلل فى الليل الى صحن الجامع ليعلق على أعمدته المنشورات ، ويخرج من المسجد ، ليضع قدميه فى « مركوبه » ويسير الى قهوة متاتيا عند حديقة الازبكية ·· يستمع الى جمال الدين الافغانى وهو يقرقر بشيشته ، ويوزع « السعوط بيمناه والثورة بيسراه » ·· تلميذ يتعلم الثورة من الثائرين ··

ثم عليه بعد ذلك أن يصعد درجة أخرى ، فيلتحق بالحكومة ·· كاتبا فى « الوقائع المصرية » التى يرأس تحريرها أحد تلاميذ الافغانى ، الشيخ محمد عبده ، بمرتب ثمانية جنيهات ، فبماذا « يطالب » هذه المرة ؟ ·· بالاداة الوحيدة التى يستطيع بها مثله أن يشارك فى حكم مصر : البرلمان ·· ويكتب فى الوقائع «المستبد عرفا من يفعل ما يشاء غير مسئول ، ويحكم بما يرسم به هواه ، وافق المشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها ·· ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه الى هذا المعنى ونفروا من ذكره ، لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الامم والشعوب من الاضرار » ·

تلميذ مخلص للأفغانى ، يعرف كيف يردد كلماته ··!

وتشب الثورة العرابية للقضاء على هذا الاستبداد ·· ويساهم الشاب الصغير الذى لم يبلغ الرابعة والعشرين فى الثورة ·· ويتحمس للزعماء الفلاحين ـ مثله ـ الذين يريدون الاطاحة بالاستبداد التركى ·· ولكن الثورة تتخبط فى أخطاء بعض قادتها ، والاستبداد المحلى يستعين بالانجليز فيدخلون مصر ، وتفشل الثورة وينفى عرابى ومحمد عبده والنديم ، وقبلهم نفى الافغانى ، وكل من عرفهم فى قهوة متاتيا ·· وتعود سطوة الطبقة التى كان يجب أن تطيح بها الثورة ·· ويوضع سعد فى السجن أياما ثم يخرج وقد طرد من وظيفته ·· فهو الآن فى الطريق مجرد أزهرى شاب ·· بلا زملاء ولا أساتذة ولا عمل ·· ودرجات السلم التى قطعها صاعدا قد سقط عنها ·· فماذا يصنع ··؟

يبدأ من جديد ··؟

ويقتحم سعد مهنة جديدة ، لا يحتاج النجاح فيها الا الى ذلاقة اللسان وحضور البديهة والذكاء ·· ولا يشترط لمزاولتها الحصول على شهادة أو مؤهل ·· وهى لذلك ـ فى ذاك الوقت ـ مهنة حقيرة مهينة ، ينظر الناس اليها بازدراء ، ولا يعمل فيها « أولاد الناس » تلك هى المحاماة ·· وكان المحامى فى ذلك الوقت يسمى «السفيه» !

ويعمل فى المحاماة تسع سنوات ·· يرتفع فيها بالمحاماة من السفاهة الى الكرامة ·· وتسترد اعتبارها ، هذه المهنة التى كان عليها أن تقاوم وتتزعم وتثور ·· وهو فى أول عهده بالمحاماة تنظر اليه الحكومة نظرة ارتياب فتلقى القبض عليه بتهمة تأليف « جمعية الانتقام » ثم لا تجد دليلا فتفرج عنه ·· وفى آخر عهده بها تنظر اليه الحكومة نظرة اطمئنان فتعينه قاضيا ·· ويكون أول محام مصرى يجلس فى كرسى القضاء ··!

ويتدرج فى مناصب القضاء أربعة عشر عاما متوالية حتى يصبح مستشارا ، وفى هذه الاعوام يتعرف لأول مرة على الارستقراطية ·· فبعد المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا يأخذ مجلسه فى ندوة « الاميرة نازلى » بين الباشاوات ·· ويصاهر هذه الارستقراطية فيتزوج « صفية » ابنة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزارة ، ويبحث عن المؤهل الرسمى فيدرس الحقوق وهو مستشار وزوج ، وينال الليسانس من باريس ·· وهذه الاعوام هى فترة ضعف فى تاريخ سعد ، ولكنه لا يفقد شخصيته ·· فهو يظل المصرى الفلاح ، لا ينخرط فى سلك الارستقراطية ولكنه « يصاهرها » فحسب ·· يصاهرها بالزواج ، وبالوظيفة ، ثم ·· بالوزارة ··

ففى سنة ١٩٠٦ وقع حادث رهيب هز مصر هزا عنيفا ·· نصب الانجليز فى قرية دنشواى أربع مشانق ، وكل ربع ساعة يخطر الى المشنقة فلاح ، ويلتف الحبل حول عنقه ثم يسقط ، وأهل القرية واقفون فى الحقول وعلى أسطح البيوت الطين يشهدون ·· وبين كل عمليتى شنق يخطر فلاح أو فلاحون وقد جردوا من ثيابهم ، وعلى ظهورهم تتوالى السياط ، وينزف الدم ، وحول المكان وقف جنود الانجليز — كما قال برنارد شو — يشرفون على اخراج هذه المسرحية وحفظ النظام بين المتفرجين ! وغدت قرية دنشواى لوحة قاسية تعبر عن حالة مصر كلها : أمة مسلوبة مسوقة الى حتفها ، تلهب ظهرها العارى سياط الاحتلال ، وتنهش لحمها المتمزق غربان المصالح الاقتصادية الاجنبية ··

وطارت أنباء دنشواى فى القطر الهاجع تهز النائم وتوقظ الغافل ، وتشير بأصبع من الدم الى حاضر أسود ومستقبل مجهول ، وتقدم الدليل القاطع الى مصطفى كامل الذى كان يندد فى العالم كله بمساوىء الحكم الانجليزى بلا دليل ··!

وكان لابد أن يصنع الانجليز شيئا لقمع هذا السخط الذى كشر

أنيابه فجأة ‥ كان لابد من جرعة صغيرة لارضاء المصريين ، وكانت هذه الجرعة هي اشراك بعض المصريين ذوى السمعة الحسنة لدى الرأى العام فى مناصب الحكم ، واخراج اللورد كرومر المسئول عن هذه المجزرة ‥ وعين سعد زغلول وزيرا للمعارف ، اذ توافر فيه الشرطان : الأول أنه حسن السمعة بين المصريين ، حتى أن مصطفى كامل نفسه أشاد بتعيينه وزيرا ، والثانى أنه ليس خصما عنيفا للانجليز يقف منهم موقف العداء الصريح ‥ ويبقى فى الوزارة سنوات ثم تتراكم الخلافات بينه وبين الانجليز ، وبينه وبين الخديو، فى وزارة المعارف ثم فى وزارة « الحقانية » فيقدم استقالته ‥ وتقبل فورا ‥

وبعد هذا السرد السريع ، نقف هنا قليلا لنتأمل قضية هامة :

فقد تعرضت حياة سعد فى فترة توليه القضاء والوزارة لجدل عنيف ‥ ناس يقولون ان سعد استطاع فى وزارة المعارف أن يوقف سياسة الانجليز التعليمية عند حدها ، وأن يقص أطراف «دنلوب» الجبارة وأن يكون أول وزير مصرى له نفوذ حقيقى فى وزارته ‥ وأن يجعل اللغة العربية هى اللغة الاساسية فى المدارس بدلا من اللغة الانجليزية ‥

وناس يقولون : بل انه صاهر مصطفى فهمى الذى رأس وزارة واحدة مدة ثلاث عشر سنة متوالية ، لانه كان أطوع رؤساء الوزارات جميعا للانجليز ‥ وأنه ـ أى سعد ـ قد اشترك فى كل الاوزار السياسية التى اقترفتها الوزارات المصرية التى اشترك فيها‥ وأنه هو الذى دافع عن فكرة مد امتياز شركة قناة السويس أمام جمعية شورى القوانين ، وهو الذى اشترك فى اعداد التشريعات المقيدة للصحافة ، والتى سيق بها فريد الى السجن ‥

فبماذا نسمى موقف سعد فى هذه السنوات ..؟

هل كان وطنيا ؟‥ أو كان خائنا ؟‥

الرأى عندى أن الحيرة هى التى كانت طابع سعد زغلول فى هذه الفترة ‥ وهى نفس الحيرة التى كانت طابع أكثر المصريين فى ذلك الوقت ‥

فبعد صدمة الاحتلال الانجليزى ‥ سادت مصر موجة من اليأس والفاجعة والركود ، دامت حتى أيقظها صوت مصطفى كامل ‥ وبعد أن استجمعت مصر حواسها على صوت الزعيم الشاب بدأت

تفكر .. وتبحث عن طريق الخلاص .. وكان طبيعيا أن تظهر أكثر من فلسفة ، وأن يظهر بالتالى أكثر من حزب ..

وفى خلال سنة واحدة .. أعلن عن تشكيل ثلاثة أحزاب : حزب الأمة .. والحزب الوطنى .. وحزب الاصلاح الدستورى .. فاذا استبعدنا هذا الحزب الاخير الذى أسسه الشيخ على يوسف بوصفه كان حزبا شخصيا مرتبطا بوجود زعيم .. فانه يبقى لدينا حزبان أو فلسفتان رئيسيتان :

كان الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل صاحب الفضل فى نفض غبار اليأس عن المصريين ، وبعث الحركة الوطنية لمقاومة الانجليز ، ولا شك أن البدء بمقاومة الاستعمار هو الخط السياسى السليم ، لانه بغير طرد الاستعمار لا يمكن أن يستقيم الامل فى مستقبل مأمون ، على أن مصطفى كامل والشباب الذين التفوا حوله كانوا من الجيل الذى لم يعاصر مقدمات الثورة العرابية ولم يدرك كنهها .. لقد خرج هذا الجيل الى وجود الوعى ليجد أن انجلترا هى الخصم الرئيسى ، وهى التى تستغل مصر وتستبد بها ، فظنوا أنها الخصم الوحيد .. لم يشهدوا استبداد العرش والاتراك بالمصريين ليكرهوه كما كرهوا استبداد الانجليز ، ولم يشهدوا قصة كفاح المصريين المرير على الخديو ، حتى استعان الخديو بالانجليز كى يدركوا كيف أن الاستبداد المحلى صديق صدوق للاستبداد الاجنبى .. ولم يدركوا أخيرا أن أوربا كلها كانت تتجه الى استعمار البلاد الأقل قوة لكى تسيطر على مواردها ، وليست انجلترا وحيدة فى هذا الميدان ، بل على العكس .. لقد وجد مصطفى كامل بمجرد تخرجه فى الجامعة يدا تمتد اليه من الخديو عباس تساعده وتحرضه ووجد رتبة الباشوية تأتيه من الباب العالى فى تركيا ، ووجد نوابا فرنسيين يحرضونه مع الخديو والباب العالى على المضى فى مقاومة الانجليز .. فلم ينتبه وهو فى بدء خبرته وتجاربه الى ماوراء هذا العون والتأييد من دوافع ونوايا لا تختلف كثيرا عن نوايا الانجليز .. وكانت النتيجة أن الحزب الوطنى ارتكب الاخطاء الرئيسية الآتية :

١ — فقد دعا الحزب فى برنامجه الى استقلال مصر طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، أى أن تكون مصر مستقلة استقلالا ذاتيا تحت ظل الخلافة التركية .. وكانت هذه الدعوة خاطئة من نواح كثيرة : فالمصريون — والفلاحون بنوع خاص — الذين ذاقوا مرارة العسف التركى وامتصاص الدخلاء لأقواتهم لا يمكن أن يتحمسوا لدعوة تتجه الى تركيا مما أدى الى اقتصار نفوذ مصطفى كامل على الطلبة

والشباب فى المدن دون الريف ٠٠ ومن وجهة نظر العـالم الخارجى أيضـــا ، لم تكن الدعوة الى خروج مصر من نفوذ انجلترا الى نفوذ تركيا تكسب البريق والنجاح الذى تكسبه دعوة الى تحرير مصر من كل نفوذ ، فى وقت تثور فيه بعض الشعوب الأوروبية ــ كاليونان ــ على الاستعمار التركى !٠٠ فضـــلا عن أن الاعتماد الادبى على الخلافة التركية كان كالاستناد الى جدار منهـار ، فلم تكن لهذه الخلافة أية كلمة مسموعة فى العالم يمكن أن تنفع مصر ٠٠ وكانت الامبراطورية التركية قد غدت أضحوكة الامبراطوريات ٠٠ بل ان تركيا نفسهـا كانت تلتهب فيها الثورات ضد الخليفـة تحاول الاطاحة بالاستبداد واقامة حكم الدستور ٠٠

ثم ٠٠ ألم يكن هذا الخليفة التركى هو نفسه الذى أصدر بيـانه الشهير بأن عرابى كافر مارق ؟!

٢ ــ وتحالف الحزب الوطنى مع الخديو عباس طويلا مع أن عباس هذا هو الابن المباشر لتوفيق الذى دعا الانجليز الى احتلال مصر ٠٠ ولم يفهم أن اصطدام الخديو الوقتى مع الانجليز كان لتوسيع سلطة العرش لا لتحرير المصريين ٠٠ لينفرد الخديو بالاستبداد بالمصريين دون الانجليز ٠٠ وقد دفع الحزب الوطنى ثمن هذه الغلطة سريعا ٠٠ فقد أدرك عباس بسرعة أن مصلحة عرشه فى الارتبـاط بالانجليز لا بالشعب ، فخـان مصـــطفى كامل وطعنه فى ظهره « بسياســة الوفاق » الشهيرة ٠٠ وهذه الغلطة تذكرنا بغلطة الوفد حين هادن القصر فى سنتى ١٩٥٠ و١٩٥١ ، ظنا منه أن القصر يمكن أن يعينه فى محاربة الانجليز ٠٠ حتى دفع الوفد الثمن بنفس الطريقة حين طعنه فاروق من الخلف بحريق القاهرة وما أعقبه من مؤامرات ٠٠

٣ ــ وأخطأ الحزب الوطنى غلطة ثالثة كبيرة ، اذ اعتمد على فرنسا ونشر بين جماهيره أملا فى عونها وكان مصطفى كامل فى ذلك منخدعا بما يراه من مظاهر الخلاف بين فرنســا وانجلترا فى شأن مصر ٠٠ ولم يدرك أن فرنسا وانجلترا دولتان استعماريتان ٠٠ وأن الخلاف بينهما تنافس على الظفر بالمصالح المصرية ٠ ومرة ثالثة ، انهـارت آمال المصريين التى أقامها لهم الحزب الوطنى ، اذ عقدت فرنسا الاتفاق الودى الشهير مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ٠٠ وهذه الغلطة أيضا تذكرنا بغلطة معاصرة : غلطة الذين يعلقون آمالهم فى اخراج الانجليز على مساعدة أمريكا ٠٠ فهم ــ بدورهم ــ لا يدركون أن أمريكا لا تعادى الاستعمار كنظام ولكنها « تنافس » الاستعمار الانجليزى ٠٠ وأنها

ما زالت تخذل الآملين فيها كلما تعرض « عطفهـا » على قضية مصر لامتحان حقيقي ..!

والى جانب هذه الاخطاء السياسية التى كانت تفض الكثيرين عن الحزب الوطنى ، كان ملحوظا أن الحزب الوطنى يقف موقفا رجعيا من التطور الاجتماعي : فحين تزوج الشيخ على يوسف ابنة السـادات كانت صحف الحزب الوطنى هى التى تزعمت الحملة عليه !.. وحين أصدر « قاسم أمين » كتابه عن تحرير المرأة ، تزعمت صحف الحزب الوطنى أيضـا الحملة على سـفور المرأة وتحريرها ، واتهمت قاسم أمين بأفظع الاتهامات ! بل لقد حدث حين كان الشيخ محمـد عبده مفتيـا للديار المصرية أن تلقى سؤالا من أحـد المسلمين فى جنوب أفريقيا يسأل : هل يجوز للمسلم أن يلبس القبعة ؟ فأفتى محمد عبده بأن « لبس البرنيطة اذا لم يقصـد فاعله الخروج من الاسلام لا يعد مكفرا » .. فهاجمته اللواء واتهمته بالكفر والالحاد لانه أباح للمسلمين لبس القبعات !!

على أنه اذا كان الحزب الوطنى قد نقصته الخبرة السياسية ، فقد كانت له النية الصادقة والتضحية النبيلة ، وكان له قبل كل شيء فضل اذكاء الروح الوطنية فى النفوس ، واعادة الشعب الى الثقـة بنفسه ..

أما الحزب الثانى فهو « حزب الامة » .. كان رئيسـه محمود سليمان باشا ، وفيلسوفه ورئيس تحرير لسان حاله «الجريدة» أحمد لطفى السيد ، وقد تكون هذا الحزب ــ كما قال لطفى السيد فى «الجريدة» من «سراة البلاد وأعيانها وأذكيائها» ــ أو بالتعبير الاقتصادى ــ من كبار التجـار والملاك الزراعيين فيهـا .. وانك لتذكر ــ أيهـا القارىء ، أن هـذه الفئة ذاتها هى التى قادت حركة المطالبة بالدستور فى أواخر عصر اسـماعيل حتى نشبت الثـورة العربية .. وتذكر أن غاية هذه الحركة كانت وضع أداة الحكم فى أيدى المصريين .. فلا تفـرض الضرائب الا بموافقتهم ولا تعقـد التسـويات المـالية مع الدول الا برأيهم .. فهم أصحاب الثروة الزراعية فى البلد ، الثروة الوحيدة فى ذلك الوقت .. وهم بناء على ذلك دافعو الضرائب الذين يتحملون مغبة سفاهة الحكومة المـالية وعسـف الاتراك .. فهم الآن يعودون الى التجمـع فى حزب الامة ويلعـون دعوتهم القـديمة : مصر للمصريين .. ليست للانجليز وليست للاتراك .. ويطالبون بنفس المطـالب القـديمة : وضع الدستور ونشر التعليم وتمصير الاداة الحكومية..ثم الاستقلال التام.

وقد قلت أن أحمد لطفى السيد كان فيلسوف هذا الحزب وكان لكتاباته فى « الجريدة » آثار عميقة جدا ، حددت الى حد كبير الكثير من اتجاهات السياسة المصرية خلال نصف قرن تقريبا وعلى ذلك فخير ما أوضح به فلسفة هذا الحزب هو أن أعود بك الى تلك المقالات التى كان احمد لطفى السيد يكتبها سنة ١٩٠٧

كان احمد لطفى السيد يرى ان فى مصر سلطتين : السلطة الشرعية اى الخديو عباس ، والسلطة الفعلية اى الانجليز .. وان نظام الحكم استبدادى مطلق « الامير فيه مطلق فيما له من السلطة ، والمعتمد البريطانى واعوانه اكثر اطلاقا فيما سلطتهم عليه القوة من الادارات المصرية .. والامة أمام هاتين السلطتين المطلقتين تجرى بها الاقدار يوما الى اليأس ويوما الى الرجاء .. اذن فلابد أن تقوم سلطة ثالثة تقضى على استبداد هاتين السلطتين هى : الامة وما هى الامة فى رأيه ؟ هل هى عامة الشعب ؟.. كلا : الامة لا تتكون من الافراد بل تتكون من العائلات .. والاعيان هم رؤساء الامة الطبيعيون ، لانهم رؤساء العائلات » .. فالامة بهذا المعنى ، بمعنى أنها الملاك الزراعيون « يجب أن تتخذ لها مركزا ثابتا بين السلطتين » وما هو الطريق الذى يتبع فى تحقيق هذه الغاية ؟.. « الطرق السلمية المشروعة ، التى لا تمس مصلحة الاجانب ، ولا تجعل للانجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم فى مصر » .. أما « التطرف من جانب الجمهور » فالحزب لا يوافق عليه « لانه يؤدى الى « العناد والقسوة من جانب الاحتلال القوى ، عناد لاتحتمل هذه البلاد نتائجه فى هذه الحالة الراهنة ! »

فحزب الامة هو حزب الاعيان .. وهو اذا كان صاحب الفضل فى شن الهجمات على سلطة الخديو ، والمطالبة بالدستور ، الا أنه لم يكن يتحرق كراهية للانجليز .. ولم يكن يرى أن تتجه الحركة السياسية ضدهم أولا .. لم يكن يطلب الجلاء ، ولكن التدرج .. والدستور كان يطلبه ليكون وسيلة يشترك بها الاعيان فى حكم البلاد « جنبا الى جنب مع الخديو والانجليز ..

« ... لسنا نطلب الاعتراف باستقلال حكومتنا المصرية ، لان استقلالها ثابت معترف به بالمعاهدة الدولية .. ولكن الذى نطالب به هو استرداد حقوق الامة الطبيعية ، بأن تكون لها فى مصر كل السلطة التشريعية تدريجا .. أما الاحتلال الانجليزى فانه قوة أتت بها ظروف سياسية مرتبة ، وتذهب بها ظروف سياسية مرتبة

كذلك ! » .. كذلك كان حزب الامة يوافق على سياسة الانجليز الاقتصادية فى مصر على طول الخط « .. نظلم الانجليز اذا لم نعترف بالتحسين المادى والادارى الذى وصل الى مصر فى عهد الاحتلال ! . »

وكان لموافقة حزب الامة على سياسة الانجليز الاقتصادية سبب هام : فالحزب كما رأينا يتكون من أصحاب الاملاك ، أو من « أصحاب المصالح الحقيقية » كما كان يقال .. وكانت سياسة الانجليز فى مصر تتجه الى تحطيم كل الصناعات المصرية التى كانت بالبراعم تبشر بالنمو ، وافساح المجال لرءوس الاموال الاجنبية تستأثر بالصناعة والتجارة .. أو كما قال كرومر « ان من مصلحة الطرفين — مصر وانجلترا — ان تقوم صناعة قطن مضمونة .. مصر تزرع القطن وانجلترا تصنعه ! » .. ومن أجل ذلك قام الانجليز باصلاحات هامة لتحسين الرى والصرف واخصاب الاراضى الزراعية .. وأصبحوا هم المشترين الوحيدين تقريبا للقطن الذى يزرعه كبار الملاك ، أو « أصحاب المصالح الحقيقية » ..

وقد أدى ذلك الى توثيق كثير من الصلات بين انجلترا و « أصحاب المصالح الحقيقية » .. فكانوا يرسلون أبناءهم الى انجلترا يتلقون العلم ثم يعودون ليتولوا المناصب البارزة فى الادارة .. فاذا طالب « أصحاب المصالح الحقيقية » بعد ذلك بشىء .. فلا أكثر من أن يزيد حظهم فى حكم البلاد ..

تلك هى التيارات السياسية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت : فأى التيارات تختار ، أيها القارىء .. ؟

ان الحيرة التى تأخذك الان كانت تأخذ سعد قطعا !.. انه يرى جوانب الضعف والقوة فى كل تيار فيحجم عن الانضواء تحت واحد منها نهائيا .. فالحيرة هى طابع سعد فى هذه السنين ، وآيات هذه الحيرة كثيرة :

أولها أنه لم ينضم الى حزب منها انضماما واضحا .. وهذا السلوك غريب من سعد بالذات ، ولا تفسير له الا هذه الحيرة التى كانت تضطرب فى نفسه .. فهو رجل بارز ، مشغول بالمسائل العامة ، وله مواهب تدفعه دفعا الى السياسة ، وهو عنيف فى حبه وكراهته .. ومع ذلك فهو لا يحب حزبا بعنف ، ولا يكره حزبا بعنف .. انما هو يأتى الحسنات التى يرضى عنها الجميع ، ويرتكب الاخطاء التى يغضب لها الجميع .. يغسل قدميه فى كل نهر ، ولكنه لا يمضى فى تيار واحد منها ..

وهو صديق حزب الامة .. الساهر فى ندواته .. المشترك فى وزارته ، بل اننا نجد « أحمد شفيق باشا » يقول فى مذكراته « كان الخديو عباس يخشى ان يكون لسعد زغلول وأخيه أحمد فتحى زغلول باشا يد فى تأليف هذا الحزب ، لذلك سألنى مرتين وهو فى أوروبا عن ذلك فأجبته بأنه لم يظهر لى أن لهما علاقة به » ولكن الخديو عباس ظل على يقينه من هذا الاشتراك ، فنراه يقول فى مذكراته التى نشرها فى « المصرى » سنة ١٩٥١ « كان سعد باشا زغلول هوالرأس المفكر وراء هذا الحزب وتلك الجريدة فى مستهل عهدها .. وكان قد تلقى دروسه الاولى فى السياسة باشراف الاميرة نازلى سليلة محمد على ، والموالية مع ذلك لانجلترا .. وانه لتطور أساسى ذلك الذى جعل من هذا الفلاح ابن الفلاح بطل الاستقلال الوطنى بذلك الاخلاص المطلق الذى اتسم به من قبل نشاط مصطفى كامل ! » ..

وهو فى الوقت نفسه صديق لمصطفى كامل .. وحين عين وزيرا لاول مرة كتب مصطفى كامل فى اللواء يقول :

« ان ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول يحملهم على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريا مشهورا بالكفاية والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل .. وأننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم ، وسمعناه يقرع بلهجةحادة الكسالىوالمقصرين كبارا كانوا أوصغارا .. فاذا بقى سعد بك فى وظيفته كما كانوكما هو — وهو ما نعتقد — أملنا خيرا كبيرا للمعارف ورجونا سريان هذه الروح الى بقية النظار وعودة الحياة المصرية الى الوزارة » ..

فهذا التعليق يدل على سابق ود ، وسابق اتفاق فى آراء كثيرة .. ومع أن الحزب الوطنى عاد فهاجم سعد بشدة — وبحق — حين أخطأ سعد فى الوزارة .. الا أنه لم يصبح عدوا له .. حتى أنه حين رشح نفسه بعد ذلك فى الانتخابات لعضوية الجمعية التشريعية — كما سيأتى — أيد الحزب الوطنى سعد ، وأقام السرادقات له ، وكتب فريد فى مذكراته — وهو فىالمنفى — يقول : «ان انتخاب سعد باشا سيغضب الخديو ، ومما يزيده غضبا أن الحزب الوطنى عضده وساعده بقوته » ..

حتى « المؤيد » جريدة الشيخ على يوسف ، ولسان حزب

الاصلاح الدستورى ، كان مدينا بوجوده لسعد زغلول .. فحين تفلس الجريدة ، يسرع سعد زغلول الى انقاذها بالمال ، وحين تقرر الحكومة اغلاقها ، يذهب الى صهره رئيس الوزارة ، ويدافع عنها حتى يلغى قرار الاغلاق .. ويسجل على يوسف ذلك كله فى مقالات له

هكذا كان سعد حائرا .. يساعد كل مجهود وطنى مهما كان لونه ، ويصدر بيان الدعوة الى انشاء الجامعة المصرية من بيته .. ويرتكب فى الوزارة أخطاء لا يمكن تبريرها .. وسيكون هو نفسه — بعد قليل — أول المعترفين بها ..!

ولم تكن هذه حيرة لسعد وحده ، بل حيرة الكثيرين .. ربما الاغلبية ؟! ..

على أن حيرة سعد تنتهى بخروجه من الوزارة .. ليعقبها تصميم عظيم ..

وكان هذا العملاق الذى خبر كل سر ، وذاق كل طعم ، بدأ يعرف كيف يصنع الخبز الذى يريده المصريون .

فما أن يعلن عن تكوين الجمعية التشريعية . وان بعض أعضائها ستعينه الحكومة وبعضهم سينتخبه الشعب ، حتى يقرر خوض معركة الانتخاب ، ويرشح نفسه عن القاهرة ، وفى دائرتين منها ، والقاهرة كلها أربع دوائر ، أى فى نصف المدينة تماما ، ويدخل المعركة مستقلا عن الاحزاب .. واذا كانت الاحزاب ستؤيده كلها ، فانه لن يكون مدينا بنجاحه لحزب بالذات ..

ويفوز سعد فوزا لم يكن يتوقعه أحد ، ويكتسح المعركة !

الآن يقطع صلته بكل « تعيين » ويختار « انتخاب » الناس حتى آخر حياته ..

فاذا دخل الجمعية التشريعية ، ولها وكيلان واحد معين وواحد منتخب ، عينت الحكومة عدلى يكن وكيلا ، وانتخب الاعضاء سعد لمنصب الوكيل الثانى ..

⊙❖⊙

هنا هو سعد ، بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية يصبح الوكيل المنتخب .. وعدلى الوكيل المعين .. وهما الآن صديقان يتبادلان التقدير والاعجاب .. ولكن القدر الذى جاء بكل منهما من نبع ، أراد أن يجعل كل واحد رمزا لقوة جبارة عاتية .. هذا الذى بعثته الطبقة الحاكمة التى هو ابنها ، وذلك الذى بعثته ارادة الشعب ،

الشعب الذى لا يعـرف أحـــد مضمونه الجديد بعد .. ولا بد أن يقع الصدام ..

وتجىء أول معركة ..

توعز الحكومة الى أحد الاعضـــاء أن يسألها : اذا حدث وتغيب رئيس الجمعية التشريعية ، فمن الذى يرأس الجلسة .. الوكيـــل المعين او الوكيـــل المنتخب ؟.. وترد الحكومة بالاجابة المحضرة من قبل : الرئيس المعين طبعا ..

ويهب سـعد .. انه هنا ارادة الشعب .. وعقيـدته ان ارادة الشعب يجب أن تكون لها السيادة على ارادة الحكومة .. وقبـــل أن يصدر قانون الجمعية التشريعية كان يكتب فى « الاهرام » مقالات بتوقيع « س » يطالب فيهـا بزيادة حقوق النـــاخبين والمجلس .. ويومها رد كتشنر على مقالاته بتصريح قال فيه : ان هذا المشروع يمكن تعديله بمضى الزمن تبعا للتقاليد .. وها هى فرصة تسنح لوضع تقاليد فى مصلحة الشعب ..

هب سعد يهاجم الحكومة على هذا التصريح ورد عليـــه رئيس الحكومة متحديا بقوله : « اذا كان المجلس لا يقـر هذا التصريح فالحكومة سوف تنفذه على أى حال ! » . واحتج سعد على هـــذه الزراية بالاعضاء ، ووجه الى رئيس الحكومة كلاما عنيفـا ارتعدت له فرائض الاعضاء المذعورين : « يقول عطوفة الرئيس أن الحـكومة ستنفذ هذا التصريح .. فبأى كيفية يا ترى ؟ أبالقوة ؟ لقد أنكرها الرئيس وقال لا نريد أن نلتجىء الى القـوة .. اذن الى اى شىء تريد أن تلتجىء .. نحن لا نسلم لك بهذا الحق أبدا ! » ..

وتسفر المعركة بين الحكومة التى يوجهها كتشنر ــ وبين سعد .. ويضع سعد أول تقاليد المعارضة البرلمانية فى مصر : تصبح له كتلة من الاعضاء يتبعون اشارته ، ويلجأ الى كل المنـــاورات التى تعرفها برلمانات أوروبا لمقـــاومة الحكومة .. فينسحب بأنصـــاره ليصبح العدد غير قانونى وترفع الجلسة .. وتتوالى الجلسات .. وسعد يقف على المنبر عالى الصوت مرفوع الهامة ، ولاول مرة تزدحم القاعة بالمتفرجين وتتركز الانظار فى مصر كلها على المنبر .. ويشعر الناس بأن هذا المجلس النيابى الشاحب يمكن أن يكون شيئا .. ويعصف منطقه بكل حصون الحكومة ، حتى ان الاعضــــاء جميعا يقفون له مصفقين .. ولكنهم ساعة التصويت ـ طبعا ـ مع الحكومة

ويغتاظ كتشنر من هذه الحملة التى لا يستطيع ايقافها فيقول

لعدلى يكن : انك لا تعاون الحكومة على صد حملات سعد.. فيجيب عدلى ـ اللاعب النظيف ـ انني لم أتعود أن أكون تابعا للوزارة !..

كان عدلى يعرف أنه مجرد رمز للطبقة الحاكمة .. وأن المعركة لا تدور حول شخصه بل حول وضعه .. وقد قال سعد فى احدى خطبه انه يقبل عدلى يكن رئيسا ولكنه لا يسلم بالمبدأ .. وفى أثناء خطبة أخرى لسعد ، مال عدلى يكن على جاره وقال له بالفرنسية :

Saad Pacha parle très bien. mais malheureusement il s'adresse à des sinions de chemin de fer.

اى : ان سعد باشا يقول كلاما بديعا ، ولكنه مع الاسف يخاطب جماعات كأعمدة السكك الحديدية !!

وتصوت « أعمدة السكك الحديدية » فى جانب الحكومة ويهزم سعد ..

ولكن سعد ينتصر انتصارا ساحقا .. خارج المجلس .. فقلوب الناس تخفق له الآن بشدة : فى داخل القاعة اشتبك محام شاب « عوض الجندى » مع عضو كان يقاطع سعد كلما تكلم .. وفى اليوم التالى للتصويت امتلأت جدران المجلس الخارجية بالمنشورات الثورية ، علقها فى الليل مجهولون .. وفى شهور خمسة ـ هى كل عمر الجمعية التشريعية ـ تجمعت حول سعد كل أسباب المعارضة وقوتها .. كانت بمثابة فترة ترشيح وتمهيد للزعامة المقبلة .. وانه الآن ليمحو كل آثار التردد والاخطاء القديمة .. حتى ليقف مرة على منبر الجمعية يدلى للناس جميعا باعتراف نبيل « انني كنت قاضيا ، وكنت وزيرا ، وأنا الآن عضو بينكم..وقد كان شعورى يختلف باختلاف مركزى .. عملت وأنا وزير أمرا لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه ، المعارضين له بكل قواى .. عملته لظروف بررتها فى ذلك الوقت أمام نفسى .. كما يبرر اخوانى أعمالهم الآن .. وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية .. ولكن لو عرض على مثل هذا الامر الآن لرأيته خطأ جدا ، وتألمت غاية الالم .. فلا تهولنكم أشخاص الوزراء ، فان مراكزهم تتغلب عليهم !! » ..

أنه يعتذر عن كل ما أخطأ فيه .. وينال باعترافه الغفران .. وهو ينظر أيضا الى المستقبل ، قال صديق له ذات يوم أنه يتعب نفسه فى الجمعية التشريعية بلا جدوى ، فالاعضاء فى جانب الحكومة ..

فرد عليه : اننى لا أخاطب الجمعية التشريعية بل الامة ، ولا أحدث الحاضر بل المستقبل .. !

⊙❖⊙

خمسة شهور فقط عاشتها هذه الجمعية التشريعية ، هـــذا المنبر المتواضع الذى جعل منه سعد شيئا مذكورا .. ثم تهجم الحــرب العالمية الاولى فتلف فى ظلامهـــا كل المصريين ، وكل الاتجاهات .. وتعج القاهرة بجنود الامبراطورية ، وتصبح مصر قاعدة هجومية تخرج منها حملات الانجليز الى الشرق الادنى .. ويساق العمال المصريون مربوطين فى الحبـــال الى الجبهة حيث يحفرون الخنادق ويتســاقطون صرعى .. ويخطف الانجليز كل شىء حتى دجاج الفلاحين ، ويدنســون كل مكان حتى خـــدور النساء .. !!

وتعلن انجلترا الحماية فتسقط السيادة التركية عن مصر كما يسقط ثوب ممـــزق قديم لم يكن يستر شيئا .. وتصبح مصر تابعة لانجلترا .. وتعلن الاحكام العرفية لاول مرة فى تاريخ مصر لتحمى جريمة اعـــلان الحماية ، وتتحلل الاحـــزاب أو تختفى وتصريحات رشدى رئيس الوزراء راضية بالحماية .. بل مرحبة .. فلا يسجل سخط مصر على هذا الوضع الا طلبة مدرســـة الحقوق .. اذ قيل لهم : ان السلطان الجديد حسين كامل سيزور الكلية ، فقرروا الاضراب ، وذهب السلطان ليجد المدرجات خالية .. وفصلت المدرسة زعماء الاحزاب ، ومن بينهم نجد اســـماء : صبرى أبو علم ، يوسف الجندى ، فكرى أباظة ، سليمان حافظ ، عمر عمر ، حســـن يس ، ويحرم من امتحان هـــذا العام الزعماء الاقل خطورة ومنهم : حسن الهضيبى ، على بدوى ، مرسى فرحات، سليمان نجيب ..

⊙❖⊙

وبعد أربع سنوات من المحنة يتبدد الظلام ، ويتلفت المصريون جميعا باحثين عن نصيبهم من نور السلام .. من المبادىء الرنانة التى تنادى بها أمريكا بلسان رئيسها ويلسون ، والتى لم ينكشف زيفها بعد ..

ويتفق الجميع ــ بلا استثناء ــ على أنه لابد من تغيير ، ولابد من عمل شىء .. كل مدفوع بدافعه الخاص : فؤاد يريد أن يصبح ملكا لا سلطانا صغيرا .. وملكا مطلقا .. فهو لا يفكر فى خروج الانجليز ، أو فى اعطاء الشعب دستورا حقيقيا .. لان مثل هذا

الدســـتور الحقيقى سيسلب منه من السلطات أكثر مما يسلب الانجليز .. وأصحاب المصالح الحقيقية من رجال حـــزب الامة القديم يريدون ــ مثل فؤاد ــ زحزحة الاحتلال الذى يضع قبضته على كل شىء .. يريدون منـــه أن يتخلى لهم عن بعض منـــاطق النفوذ الداخلى .. وأن يوضع دستور يجعلهم شركاء فى الحـكم الى جانب فؤاد .. والحزب الوطنى دعوته الى اخـراج الانجليز معروفة .. وهناك ــ أخيرا ــ أقوى هؤلاء جميعا والقوة التى لم يظهر تفوقها بعد : الطبقة المتوسـطة التى تنمو وترغى وتزبد ومن ورائها جماهير الفقراء .. فهؤلاء يريدون دســـتورا واســعا ، لا دستورا يناسب فؤاد وحده ، أو يتسع للاعيان معه ، بل يتسع حتى يشملهم أيضا ، ويجعلهم بدورهم شركاء .. وهم يريدون الاستقلال ، وبحرقة ، لانهم هم الذين ذاقوا أكثر من غيرهم لذعة الحرب والاحتلال : منهم سيق العمال واختطف القمح والدجاج والنســاء .. وهم الذين تشاحنوا مع جنـــود الامبراطورية فى الشوارع وعلى محطات السكك الحديدية والحانات .. وهم الذين طحنهم كل هذا الغلاء ..

الكل اذن يريدون التغيير .. ولـــكن مدى هـذا التغيير مازال ــ فى البداية ــ غامضا ، مما يتيح فرصة ائتلاف هــذه العناصر كلها ، وظهورها بمظهر الرأى الواحد ..

ويتمخض التفكير عن بذل مجهودين متوازيين : واحد رسمى وآخر شعبى ..

مجهود رسمى فى شكل مباحثات رسمية ينهض بها رشـدى رئيس الوزراء ، والوزير الذى يفكر له : عدلى ..

ومجهود شعبى يتبلور فى حزب يضم كل الاتجاهات السابقة ، ويرأسه المرشح الوحيد للزعامة الشعبية ، وآخر من حفظ الشعب كلماته ، نائب القاهرة القديم : سعد زغلول ..

وحين يتصل التياران بالانجليز ، تظهر أول الفوارق :

رشدى وعدلى يطلبان من دار المندوب السامى الســماح لهما بالسفر الى مؤتمر الصلح « للكلام فيما عسى أن يكون عليه نظام الحماية » فهما يسلمان بسلطة الانجليز ، بل وبالحماية ، ولكنهما يريدان « تنظيما » آخر .. دســتورا فقط يتيح لهم أن يحملوا عبء الحكم الداخلى .. ولكن الوفد يتكون على أساس آخر .. هو السعى بالطرق المشروعة فى سبيل « استقلال مصر استقلالا

تاما » وبرنامجه يجمع الهدفين : المادة الاولى تطالب بالاستقلال التام والمادة الثانية تطالب بالدستور ..

ويطلب الوفد ترخيصا بالسفر دون أن يحدد المهمة.. ويحاول المندوب السامي الانجليزي أن يحصر مهمته من الآن في نطاق الحماية أيضا فيقول في رده : « ان كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر بما لا يخرج عن الخطة التي رسمتها حكومة جلالة الملك (أي انجلترا) وأعلنتها من قبل .. » فيبادر سعد بالرد مسجلا « انه ليس في وسعي ولا في وسع أي عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الامة المصرية المعبر عنها في التوكيلات أي الاستقلال التام .. »

ويمضي سعد في اندفاعه ، مبتعدا عن رشدي وعدلي ، فهو يلقي البيانات مطالبا بالغاء الحماية تماما .. وتمنع الحكومة ـ بالاحكام العرفية طبعا ! ـ نشر بياناته في الصحف فيطبعها في منشورات ، ويوزعها في الاقاليم .. ويجابه الانجليز والاجانب وكل المسئولين بذلك مجابهة عنيفة في اجتماع شهير عقدته الحكومة دعت اليه الكبراء لسماع محاضرة يلقيها مستر برسيفال .. واستمع سعد الى المحاضرة فوجدها مبنية على أساس بقاء الاحتلال ، فوقف في نهايتها يلقي بتعقيب طويل ، ويصدم الحاضرين بعنف . « .. في سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الامة المصرية ، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا ، بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة !! »

انه ـ كما ترى ـ يقوم بواجبات الزعامة تماما .. ويترجم خلجات الشعب الى صرخات ..

ومع ذلك فهو ـ في داخل الوفد ـ في موقف لا يحسد عليه !! فكل أعضاء الوفد الكبار تقريبا ـ اسماعيل صدقي وعبد العزيز فهمي ولطفي السيد ومحمد محمود وعلي شعراوي ـ هم رجال حزب الامة القديم الذي يعنيه الدستور والحكم الذاتي دون الاستقلال التام .. ورئيسهم الحقيقي هو عدلي ، وليس سعد ، ولكن سعد كان يجابههم بقوة أخرى ، هي الرجال الجدد والشبان من نتاج الطبقة المتوسطة الذين يؤلفون لجان الوفد . ويجمعون التبرعات المالية والتوقيعات على التوكيلات .. ومن هؤلاء لاتكاد نجد بين أعضاء «الوفد» نفسه غير : مصطفى النحاس

ولمح عدلى هذا التطور .. وبات أنصاره يرقبون بأعينهم تجمع الجماهير حول سعد ، حتى أصبح هو مركز الثقل ، وأصبحت مواجهة الناس «بتنظيم الحماية» مستحيلة .. فعدل عدلى طلباته من الانجليز : هو لا يكتفى الآن بأن يسافر مع رشدى ، بل لا بد أن يسافر معه سعد والوفد أيضا .. فبهذه الطريقة يضيع على سعد فرصة التطرف والانفراد ..

على أن انجلترا ترفض الطلبات جميعا ، وتمنع الوزراء والوفد على السواء من السفر .. فتؤجل بذلك وقوع الخلاف وتطيل أمد المحالفة بين عدلى وسعد .. بين الاعيان والمحامين الشبان ..

ويقدم رشدى وعدلى استقالتيهما احتجاجا على هذا المنع .. فتتلقاهما صدور الشعب بالتحية ..

ويهم فؤاد بالعمل على تشكيل وزارة جديدة .. فيرسل اليه سعد خطابا ، بل بيانا ، عنيفا جدا : « .. قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا العرش ولكن الامة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة — رعاية لتلك الظروف العائلية — ليس من شانه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم !! لذلك عجب الناس من مستشاريكم ، كيف أنهم لم يلتفتوا الى الامة فى هـذا الظرف العصيب انما تطلب منكم أن تكونوا لهـا العـون الاول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك .. كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضـاد لمشيئة الشعب مقضى عليه بالفشل؟..اننا لا نكذب مولاناالنصيحة اذا تضرعنا اليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الوزارة الحالية ، فالحيلولة بين الامة وبين طلبها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة » ..

هذا أخيرا صوت تلميذ الافغـانى القـديم ، وزميل عبد الله النديم ..

نغمة جريئة جدا ، فمنذ وقفة عرابى فى عابدين لم يتحدث مصرى الى صاحب العرش بهذا الاسلوب .. بل أن لهجة التقريع هنـا لا نجدها فى كل ما قاله عرابى .. والمخاطرة هنا أعظم : كان عرابى يقف ووراءه الجيش المسلح أمام الخديو الاعزل .. أما سعد فهو لا يقف مع القوة المسلحة ، بل ضـدها ، والانجليز هـذه المرة موجودون .. وكانت انجلترا التى يجابهها سعد بهذا التحدى هى

الدولة الاولى فى العالم ، المنتصرة فى الحرب ، التى يركع العالم عند قدميها وهى توزع الأسلاب .. وجنودها ليسوا بعيدين ، بل هنا . فى قلب القاهرة ..

وهذا هو مغزى حركة سعد ..

انه لم يجعل المطالبة بالدستور شيئا مقصورا على الاعيان والقلة المتازين ، ولم يجعل الوطنية مجرد نشيد عذب ومبدأ أفلاطونيا ، بل جعل الدستور والاستقلال قضية واحدة ترتبط بحياة الناس، أو هو ادرك اتجاه الناس فتزعمه ووضع له الكلمات .. الاستقلال هذه المرة معناه أن يحكم الناس أنفسهم ، ان يأمنوا على أموالهم وقمحهم ودجاجهم وكرامتهم ، أن يرسل الفلاح من قريته نائبا يذهب الى القاهرة ويعبر عن مطالبه .. فلا يهبط عليه الجباة فجأة يطالبونه بضرائب لا يعرفها ، ولا يعتدى عليه ضباط المركز وجنوده ويهينونه ، ولا يرغمه العمدة على أن يعمل فى أرضه مجانا .. والشاب الذى يدخل المدرسة ، انه لن يحتاج الى نسب عريض لكى يصبح موظفا ، أو ليصنع لنفسه مستقبلا . ولن ينال العلم لكى يحرمه الانجليز من ثمراته ..

من هذه الحقائق الخطيرة فى حياة الناس خرج الحزب الجديد وولدت زعامة سعد ..

وهو منذ أرسل خطابه هذا الخطير الى فؤاد يصبح ثائرا حقيقيا .. ألا يدعو الى العصيان وعدم دخول الوزارة ؟ .. ألا تؤدى دعوته الى توقف الحياة فى مصر تماما وارتباك الجهاز الحكومى كله ؟.. ألا يوجه بذلك ضربة عنيفة الى الدولة فى صميم كيانها .. ويجعل أدواتها هامدة عاطلة .. ؟

والزعيم لا يصنع الثورة أبدا ، ولا يخلقها من العدم ، ولكن عوامل الانفجار تتراكم فى قرارة الشعب تدريجا .. حتى يصبح الشعب كالبندقية المعبأة ، المسددة ، ضغطة واحدة على الزناد وينطلق البارود ، فكل مهمة الزعيم : أن يضغط على الزناد ! ..

وهذا ما صنعه سعد .. وقد كان يفخر دائما بأنه يسير وراء الشعب ، وليس الشعب هو الذى يسير وراءه ..

توقف دولاب الحياة فى مصر اذن بفعل هذا الموقف الخطير .. فكان أول عصيان ومقاطعة يعرفها الشرق المكافح كله .. وسيتطور العصيان بعد سنوات الى مقاطعة ، ثم يأخذه غاندى ويطوره

ويفلسفه ويجعله سلاحا قاطعا ، ويستدعى قائد الجيوش الانجليزية سعد وصحبه ويأمرهم بالكف عن عرقلة تشكيل وزارة جديدة .. والا ..!

ويرفض الوفد الاحتجاج ، ويتوتر الموقف الى أقصى حد ..

عدلى وأصحابه ينتظرون نتيجة الصدام المؤكد بين الوفد والانجليز ليروا هل يتراجع الوفد أو هل يغير الانجليز رأيهم ؟ .. وكلهم شك فى استجابة هذا الشعب لاى عمل عظيم .. وسعد يشعر بالموقف ولكنه يمضى الى الصدام .. ويبدو واضحا أنه لم تبق الا نقطة واحدة وتفيض الكأس .. ضغطة خفيفة وينطلق البارود ، ويتخذ الانجليز خطة الهجوم لتطهير الارض من العصاة، فينفجر تحت أقدامهم اللغم ! ..

ففى الساعة الخامسة من عصر ٨ مارس ١٩١٩ ، يحيط الجنود ببيت سعد ، ويقبضون عليه .. وعلى أكبر الاعضاء مركزا فى الوفد: اسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل .. ويرسلونهم منفيين الى مالطة ..

وتنفجر الثورة ..

وتكون أول ثورة وطنية فى العالم تنفجر بعد الحرب العالمية الاولى !! ..

⊙❖⊙

ونعبر الآن حوادث الثورة المجيدة كيلا نفقد خيط هذا البحث ، ونقول : ان الثورة انتهت بالنجاح من نواح عدة ، وكانت لها آثار بعيدة جدا .. يهمنا منها الآن أثرها المباشر : وهو سماح انجلترا لكل من يشاء بالسفر الى أوروبا ..

ويسافر المنفيون من مالطةالى باريس رأسا ، ويلحق بهم هناك أعضاء الوفد الذين كانوا مصر فالآن يلتقى الجميع فى باريس : سعد زغلول ، اسماعيل صدقى ، حمد الباسل ، محمد محمود ، لطفى السيد ، جورجى خياط ، حنين واصف ، سينوت حنا ، عبد العزيز فهمى ، عبد اللطيف المكباتى ، محمد على علوبة محمود أبو النصر ، مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، حافظ عفيفى ، على ماهر ..

فهل يتفقون ؟ كلا ، مع الاسف .. والسبب هو سعد !..
يروى الدكتور حسين هيكل فى مذكراته أنه ذهب الى لطفى

السيد فى الايام الاولى لتكوين الوفد ، يسأل عن خطته ، فقال له لطفى السيد بصراحة : « ان خطتنا أن نسافر الى باريس ، وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وان نطلب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان .. فان أجبنا الى مطلبنا كان ذلك ما نبغي ، والا ذهب رشدى وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية ، تنظيما أساسه قيام الحكم الدستورى فى البلاد .. فقيام هذا الحكم يرفع عنا ما نتوء به من سلطة مطلقة ، شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال ، اذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى ، فاذا بلغ أشده لم يكن لغيره سلطان » ..

ونحن نصدق هذه الرواية ، فهى منطقية جدا مع ما أسلفنا من شرح لفلسفة حزب الامة .. معقول جدا أن يكون هذا هو أساس تكوين الوفد المتفق عليه وأغلبية أعضائه من حزب الأمة ورسمهم هذه الخطة معقول لان عنصر الشعب من ناحية لم يكن قد برز واثبت وجوده ولان الدول الصغيرة من ناحية أخرى كان استقلالها يضيع فى كل مكان تحت أشكال مختلفة من الانتداب « والوصاية » وما اليها .. فرسموا خطتهم على أساس هذا الامر الواقع الذى يفرضه المنتصرون على العالم ..

على أن سعد ــ فيما يبدو ــ قد نقض الاتفاق ، فهو لم يهاجم الحماية بهدوء يسمح بقبولها فيما بعد .. بل لقد هاجمها بعنفه وذهب فى الحملة عليها الى أقصى الحدود .. واصبحت الحماية شيئا كريها جــدا لا يمكن أن يخاطر بقبوله انسان .. ولما رات انجلترا ذلك واعتقلت الزعماء ، أثبت الشعب وجوده ، وثار ثورة عنيفة لم يكن ينتظرها أحد .. فأصبح الشعب عنصرا جديدا ، خطيرا ، فى الميدان ..

وقرر سعد أن يرتبط نهائيا بالشعب ، وأن يسير معه الى آخر الحدود .. وأن يرتبط بالبرنامج العلنى الذى نشره الوفد من التمسك بالاستقلال التام ، متحللا من « الاتفاق السرى » الذى يشير اليه لطفى السيد ، بقبول الحماية اذا لم يمكن الحصول على ما هو أحسن ..

والانجليز ــ مع الاسف ! ــ يدركون هذا الخلاف من بدايته .. فبعد أيام من نشوب الثورة وقف وزير خارجيتهم كيرزون فى

مجلس العموم يقول : « ان الحكومة البريطانية لم تبد قط أدنى معارضة أو سوء نية نحو مجيء رشدى باشا وعدلى باشا الى انجلترا ، فاننا نرى دائما أن من أهم الامور أن نتفق معهما على تحديد الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الايام ، أما الحال مع سعد زغلول باشا فيختلف كل الاختلاف عنه مع هؤلاء ، لانه هو وانصاره هم الذين دبروا هذه الاضطرابات ، وهم قوم غير مسئولين ، غرضهم اخراج الانجليز من مصر !! وقد اختاروا وقت انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس موعدا للقيام بهذه الحركة الثورية ، فلا سبيل للمناقشة معهم ! » ..

هناك فى باريس اذن فئة متشددة : سعد وحده تقريبا ، وفئة متساهلة عمادها أعضاء حزب الامة القدامى .. ويشاركهم موقفهم عدلى — الذى لا يزال فى القاهرة — والاحداث هى التى سترجح كفة التشدد أو التساهل ..

وتجيء الاحداث بسرعة ، لتعجل بالانقسام ، فما أن يضع الوفد قدميه فى باريس حتى تعلن أمريكا خيانتها لكل مبادئها التى كانت تتشدق بها وتعترف رسميا بالحماية الانجليزية فى مصر .. وتتبعها دول أخرى ، ويوصد مؤتمر الصلح أبوابه فى وجه المصريين ..

وتدب موجة اليأس .. ويرتفع صوت طلاب «التسوية» : ماذا ننتظر فى باريس بعد ذلك ؟ .. كيف نحطم الحماية ؟ .. وتشعر انجلترا — فوق شعورها — بهذا الشقاق ، فتوجه ضربة ثانية : اذ تعلن أرسال لجنة ملنر الى مصر لتحقيق الحوادث ، واقتراح طريقة لتنظيم الحماية ، وتثور أعصاب المتساهلين : يجب أن نعود فورا الى مصر لمفاوضة ملنر .. ان الشعب الذى يرتكن اليه سعد يهدأ يوما بعد يوم وثورته تقل ، اضراب الموظفين قد انتهى . والقبضة الانجليزية تعود ..

ويهتز سعد .. ولكن يدا من الشعب تمتد اليه فتسنده . ففى القاهرة تصدر جريدة صغيرة اسمها «النظام» .. وتنشر الجريدة يوما رسالة من قارىء مجهول يقترح مقاطعة لجنة ملنر .. ويتحمس المصريون للمقاطعة ، ويصممون ، والشعب الذى رسم الخطة ، وأثبت مرة أخرى حيويته البالغة ، ينجح فى المقاطعة نجاحا منقطع النظير .. ويقرأ سعد التفاصيل : اللجنة تصل الى القاهرة فى جو من الرعب .. أعضاؤها يركبون السيارات الى سميراميس .. ففى الطريق تطير قبعة زوجة أحد الاعضاء فيرفض سائق السيارة

الوقوف لالتقاطها ، خوفا من الناس .. ويطير غطاء مقدم السيارة فيرفض الوقوف أيضا .. وسميراميس يحاصرها الجيش كأنها معسكر ، ولكن الجماهير تركب القوارب فى النيــــل وتهتف أمام الفندق ضد اللجنة ، وبحياة سعد .. وللريف قصص أخرى .. الفلاحون عرفوا بقدوم لجنة « الخواجات » فأصبحوا لا يتكلمون مع أى أجنبى .. اذا قابل « خواجه » فلاحا وسأله : أين الطريق الى البندر ؟ أجابه : اسأل سعد باشا !..هل كان محصولك جيدا؟

ـ اسأل سعد باشا ..

ـ هل لك اولاد ؟ ..

ـ اسأل سعد باشا ..

ويقرأ سعد أنباء هذا التصميم الشعبى الرائع فيزداد تصميما على موقفه ، ويتلقى خطابا من عدلى يدعوه للحضور الى القاهرة ومفاوضة اللجنة فيأبى ..

ويعود ملنر فاشلا ، ولكن بعد أن وضع يده على حقيقة الشقاق، الذى سيترسم انجلترا سياستها المقبلة عليه .. فهـــو يسجل فى تقريره « ان الهيئة المستحقة الاعتبار المعروفة بالوفد ، التى تسلطت على عقول المصريين تمام التسلط ، مؤلفة من أعضـــاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين ، بل أصلهم من حزب الامة القـــديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجا .. بخـلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثـــورة ومعارضـــة البريطانيين .. نعم أن زغلول باشـــا ورفاقه مالوا الى المعارضين ومازالوا يدنون منهم شيئا فشيئا .. ولكن ظهر لنـــا بالاختيـــار أن الامر لا يقتضى غير يسير من العناء حتى يستمال كثيرون منهم الى المناقشـــة فى الحالة بتمام التعقـــل ، وهذا يصدق على الذين هم أكثر منهم اعتدالا مثل رشدى باشـــا وعدلى باشا وثروت باشا » ..

وضحت اذن خطة الانجليز : توسيع شقة الخلاف بين المتطرفين والمعتدلين .. ثم استمالة هؤلاء الاخـــيرين للمناقشـــة فى الحـــالة « بتمام التعقل » ..

ويصل عدلى الى باريس .. وتبدأ المبـــارزة الثانية بينه وبين سعد .. فهـــو يريد الان ــ وقد فشلت الثـــورة فى تغيير رأى الانجليز ــ أن ينفذ الشطر الثانى من الاتفاق السرى القـــديم ،

وهو المفاوضة لتنظيم الحماية .. وينضم الى عدلى أغلب أعضاء الوفد ويصبح سعد وحيدا ليس فى صفه الا الشباب مثل مصطفى النحاس وويصا واصف وعلى ماهر ..

ويفلح عدلى وأصحابه فى اقناع سعد بالسفر معهم الى لندن لمباحثة لجنة ملنر .. ويسافر متوجسا مترددا لا يريد أن ينقسم الوفد وآمال الناس كلها مركزة عليه ، ولا يريد أن يخرج عن حدود الوكالة التى وقع عليها الشعب .. وفى لندن يلعب عدلى لعبة الوسيط البارع بين سعد والانجليز .. واللعبة ــ من أولها ــ بارعة جدا .. فعدلى لا يريد أن يقبل شيئا الا اذا ورط معه سعدا حتى لا يعطيه فرصة المعارضة والمقاومة والافلات .. وسعد راسخ صامد .. وفى جلسة من جلسات المفاوضة يلتفت ملنر الى عدلى ويقول له بالانجليزية التى لا يعرفها سعد : ألا يكف هذا الرجل عن عناده ؟! ..

فيرد عدلى : لا فائدة .. !

بضغط من عدلى وأغلبية أعضاء الوفد أيضا يصلون الى حل غريب : مشروع اتفاق رضيه عدلى ولم يرضه سعد لخروجه عن وكالة السعى « للاستقلال التام » .. فليعرض هذا المشروع على الشعب المصرى ليبدى فيه رأيه ، بالرفض أو بالقبول ... وقال ملنر : أن هذا الاستفتاء سيكشف عن مدى قوة المعتدلين والمتطرفين ..

ويكتب سعد ــ تحت نفس الضغط ــ رسالة مفتوحة . محايدة الى الشعب المصرى ، يعرض فيها المشروع ويحمل المشروع أربعة من رجال الوفد ، هم : محمد محمود ، ولطفى السيد ، وعبد اللطيف المكباتى ، وعلى ماهر .

أرسل سعد رسالة محايدة عن المشروع ليس فيها أى رأى شخصى له .. ولكنه لا يريد أن يقصر فى أداء واجبه ، وهو يخاف أن يصور الاعضاء الاربعة المشروع للناس على أنه انتصار ، فأرسل خطابا سريا الى مصطفى النحاس وزملائه فى القاهرة ، يشرح لهم فيه بالتفصيل رأيه الخاص فى المشروع : « .. انى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الامة .. لانه ــ وأريد أن يكون الامر بينى وبينكم ــ مشروع : ظاهره الاستقلال وباطنه الحماية » .. ويمضى فى شرح ذلك ثم يقول : « ولكن اخوانى لا يرون فيه رأيى .. ولم أرد أن أظهر الخلاف بينى وبينهم حرصا

على الوحــدة التى هى قوتنــا ، ولكيــلا يشمت الاعــداء بنا ، ولو أن اخوانى أصغوا الى قولى أو لم أكن أخشى على هذه الوحــدة من الانقسـام لفارقت لندن ، ولكان رفضنا له بالاجماع ، ثم يقول عن « أخوانه » : « لا أريد أن أشكو منهم اليكم لانهم انما رأوا ذلك لاسباب قامت عندهم .. أهمها تغير ظروف الحال وعدم وجـود السنــد والنصير لنــا فى الخـارج وانفراد الدولة الانجليزية بالعـزة والسلطان وعدم قوة الامة على متابعة المعارضة والمقاومة »، هذه هى أســباب المستسلمين للامر الواقع ، ثم يجىء رأى الثـائر : « .. وانى أعترف بأهمية هذه الاسباب ، ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية الى اســـتقلال ولا أن تجعلنــا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقمنا للمطالبة ببطلانه وما ضحت الامة فى سبيل القضاء عليه بدماء الكثيرين من أبنائها .. » .

خطاب « سرى » نعم .. ولكن معناه أن أجهزة الوفد ستقاوم المشروع .. وفعلا .. رفضه الشعب .

الان .. لا بد من الانفصال .. لا بد من أن يقف سعد فى جانب وعدلى فى جانب آخر .. ويذهب مع سعد الشبان الذين يمثلون الشعب الذى ثار والذى يقبل استئناف الثورة ، ويذهب مع عدلى اصحاب المصالح القدامى .. الذين يخافون من مقــاومة طويلة للانجليز تعصف بمصالحهم ، وتبعث الفوضى فى البلاد وأول خسائر الفوضى على مصالحهم ، والذين يريدون تســوية تنهى المشــكلة وتحملهم فــورا الى مقاعد الحكم ..

أما سعد .. فيبقى فى باريس ، وتستمر خطاباته « السرية » الى النحاس توضح الموقف :

* « اشتد الخلاف فى الوفـد اشتدادا تعــذر تلافيــه مع ما بذلت من جهـــد وما وسـعت من صــدر وما ضيعت من حق وما ضحيت من شعور ، ونقطة الخلاف الاخيرة تنحصر فى أن المخالفين يريدون تأييد عدلى فى خطته وأريد القضاء عليها لانها مضرة كل الضرر بالبلاد ولا يترتب على اتبــاعها الا تأييد الحماية وضـــياع الاستقلال » .

* « طلب منى بعضهم أن أنشر بلاغا أنفى فيه الخلاف وأؤكد تمام الاتفاق فلم أستحسن طلبهم لأن فيه تغريرا بالأمة ومناقضة للحقيقة ، ولان هذا الخلاف يرجع الى أسباب شخصية حتى يهون احتماله ويرجى

زواله ولا يضر خفاؤه ولكن يرجع الى الاختلاف فى الغاية والشعور .. فهم ملوا العمل وقطعوا الامل ، وقليل ما أعطينا كثير فى نظرهم .. وقريب مانرجو بعيد فى اعتبارهم » .

* ثم يشكو من تصرفاتهم : « لقد كتب لورد ملنر خطابا لبعض أصدقائه بيدى نسخة منه جاء فيه « ان أصحاب زغلول باشا بذلوا آخر ما فى وسعهم لاقناعه بالقبول فلم يقتنع » فمن أين علم لورد ملنر بهذا المسعى ؟ .. ليس منى بالطبع ! »

* ثم يختم خطابا آخرا له بقوله «ان حزب الامة عاد الى بدايته وانتهى الى غايته .. ان الله لايصلح عمل المفسدين ! » .. انه اذن ينقد أصدقاءه القدامى ، ويرى على ضوء الواقع الجديد أخطاء الماضى .

وكان حزب الأمة قد بدأ يعمل فعلا ، بغير الارتباط بسعد .. فهم يعودون الى مصر متعاقبين : محمد محمود وحمد الباسل وعبد العزيز فهمى وعبد اللطيف المكباتى ولطفى السيد .. وينظم « أصحاب المصالح » فى القاهرة صفوفهم بزعامة عدلى ، وتسعى انجلترا لشد أزرهم ومقابلتهم فى منتصف الطريق فترسل بيانا بأنها تعتقد أن « الحماية أصبحت علاقة غير مرضية » وتدعو السلطان فؤاد الى تكوين وفد رسمى ليفاوض انجلترا .. وتسقط وزارة توفيق نسيم ، ويدعى عدلى الى رياسة الوزارة ، تمهيدا للاضطلاع بالمهمة التى تنتظره

ويلمح سعد الخطة المرسومة فيسرع عائدا الى مصر ، لأول مرة منذ أخرجته منها سيارة انجليزية مصفحة ، ويجزيه الشعب عن هذا الجهاد استقبالا رائعا لا مثيل له .. فالذين حملوا السلاح وقتلوا الانجليز يستطيعون أن يمنحوا التأييد الأدبى الكبير لمن يمثلهم .. فلا دار المندوب السامى ينظرون اليها ، ولا قصر عابدين ولا رياسة الوزارة .. ولكنهم كلهم هنا .. فى بيت الأمة الصغير الذى جعلوه مركز الثقل ..

ويستأنف سعد وعدلى المعركة ، التى مازالت حتى الآن لبقة خافية

.. فعدلى الآن يتهيأ لمفاوضة الانجليز بعد أن أعلنوا عدم تمسكهم بالحماية — نتيجة لتشدد سعد وجماهيره لا لتساهل أصحاب المصالح — وهو لايريد أن يذهب الى المفاوضة وحده ليقبل القليل فيشهر به سعد ، وهو لا يريد أن يرسل سعد ليفاوض فيتشدد هناك وتفشل المفاوضات ، فهو يعرض على « الوفد » أن يشترك فى وفد المفاوضات ببعض أعضائه .. وما دام الوفد برياسته فمعنى ذلك أن سعد

لا يشترك فيه ، وما دام الوفد سيشترك ببعض أعضائه فأبرز الاعضاء هم أصدقاؤه « الأعيان » وبذلك يفاوض ، ويبرم الاتفاقية ، ووراءه تأييد الوفد ..

هكذا رسم عدلى بأنامله البارعة تلك الخطة الدقيقة ، ولكن سعد يلمح الفخ ، فيلتقط القفاز فى اصرار ويشترط لاشتراك الوفد فى المفاوضات : أن تكون المفاوضات على أساس الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال (فيكون دخوله المفاوضات على أساس الوكالة الشعبية) وأن تكون له – لسعد – الرياسة (ليحضر بنفسه المفاوضات) وأن تكون للوفد أغلبية الاعضاء (لتكون له الكلمة الراجحة فى التصويت) وأن تلغى الأحكام العرفية والرقابة على الصحف (لكى يجد سندا قويا من الرأى العام)

ويدرك عدلى أن خصمه مازال عنيدا ، فيدور دورة بارعة ، ويحصر الخلاف على شرط يستطيع أن يجرح فيه سعد ، هو : رياسة الوفد، فيقول : انه يجب أن تكون الرياسة له ولأنه هو رئيس الوزارة ولا يمكن أن يكون رئيس الوزارة مرءوسا لأى شخص آخر فى وفد مشترك .. فاذا تمسك سعد بالرياسة فمعنى ذلك أنه رجل يجرى وراء المجد الشخصى ، وأنه يريد كل رياسة بأى ثمن ، وأنه يضحى بالموقف الجليل فى سبيل خدمة شخصية ..

وكما حبس الناس أنفاسهم منذ ثمانى سنوات ليروا من الأولى برياسة الجمعية التشريعية : سعد الوكيل المنتخب أو عدلى الوكيل المعين ، انطلقوا كلهم يتناقشون من يكون رئيس وفد المفاوضات : سعد « المنتخب » من الشعب زعيما ، أم عدلى « المعين » من القصر رئيسا للوزارة ..؟

وقد كان من حظ هذه المعركة الحاسمة ، أن تعيد « تنظيم » الحياة السياسية فى مصر .. فالوفد يتشقق ، والمستقلون يتفرقون وعبارة الوطنية الواسعة التى شملت الجميع أيام الثورة تتكشف عن فريقين لكل منهما طريق : القوة القديمة من الاعيان وأصحاب المصالح التى اعتادت أن تكون لها الغلبة ، والقوة الجديدة الزاحفة.. ولم يكن الناس يقال لهم فى ذلك الوقت وفديون وغير وفديين .. فالوفد نفسه منقسم لا يعرف أين يذهب .. بل كان يقال « سعديون » و « عدليون » !..

وانتشرت رقعة المعركة بسرعة : العدليون يقولون ان رجلهم هو رئيس الوزارة فلابد أن تكون له الرياسة .. وسعد يقول ان ذلك

جائز فى بلد دستورى يكون رئيس وزرائه منتخبا من الشعب .. أما فى مصر فان رئيس الوزراء يعينه السلطان ، والسلطان يعينه الانجليز ، فمفاوضة رئيس الوزارة للانجليز معناها أن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » !..

وواضح جدا أن الحق فى جانب سعد . فعلى أساس المطالبة بالاستقلال وسيادة الشعب لابد أن يكون سعد الرئيس .. ولم تكن أغلبية سعد محل جدل .. ولكن العدليين أصحاب المصالح الحقيقية لا يمكن أن يقبلوا هذه الفكرة بسهولة .. لا يمكن أن يسلموا بأن المطالبة بالدستور معناها سيادة هؤلاء الناس الجهلاء الفقراء .. فهم يطلقون عليهم أسماء « الغوغاء » و « الدهماء » و « الرعاع » وخضوع القلة المتازين لهم — فى رأى القلة — معناه الفوضى ، فأنت ترى أن الوضع الاجتماعى الداخلى يلعب دورا كبيرا ، ويمتزج بالقضية الوطنية الى حد بعيد ..

ويصيح رشدى باشا فى وجه سعد ، فى آخر محاولة للتوفيق : هذا آخر ما عندنا .. ولتفعل ما تشاء .

ويصرح عدلى للصحف : ان الوزارة ماضية فى طريقها ..

ويعتلى سعد المنبر فى سرادق هائل ويعلن الحرب على عدلى .. ويسمى خصومه برادع الانجليز .. ويصيح فى جماهيره الملتهبة : ان الوزارة فى مصر لا ينتخبها الشعب بل معينة من الحاكم ، من قبل عظمة السلطان ، بل بعبارة أصح من قبل المندوب السامى .. ان عظمة السلطان يمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم ، وسياسة مصر الخارجية بيد الدولة الحامية ، ورئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية ، يسقط ويرتفع باشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكن أن يكون بازاء رئيسه وزير خارجية انجلترا حرا فى الكلام ، لانه مدين له بمركزه .. فاذا طلب سعد الرياسة فانما يطلبها ليكون الرئيس حرا ، مرتكزا على قوة لا تهاب شيئا مطلقا فى المطالبة بحقوقها ، وهى قوة الأمة !

وينشق عن الوفد أغلبية أعضائه ، أنصار عدلى ، وهم : على شعراوى ، حمد الباسل ، محمد محمود ، عبد اللطيف المكباتى ، أحمد لطفى السيد ، محمد على علوبة ، ثم عبدالعزيز فهمى ، حافظ عفيفى ، عبد الخالق مدكور ، ثم جورج خياط .. ويبقى مع سعد : مصطفى النحاس ، على ماهر ، واصف غالى ، سينوت حنا ، ويصا

واصف ·· الاقل عددا ، والاكثر شبابا ·· ويبقى معه أيضا : الشعب ··!

وكما كان من حظ هذه المعركة أن تخطط الحياة السياسية المصرية ، كان من حظها أيضا أن توضع فيها كل تقاليد الصراع الحزبى ـ بخيرها وشرها ـ التى ستكون طابع الحياة المصرية لثلث قرن ··

فالمظاهرات الصاخبة تنطلق ، مذكرة بأيام الثورة ، والحكومة لا تتركها تتلاشى بل تتعرض لها بالقمع العنيف ، فيسقط القتلى بالعشرات ·· ويلهب سعد الثورة ، فينزل الى الشارع ، ويغمس منديله فى دم قتيل ويصيح : ان هذا الدم على رأس عدلى ··!

تلك هى معارك الشوارع التى لا سبب لها الا عدم الخضوع لارادة الناس ، مما يضطرهم الى العنف ··

وتريد الحكومة أن تنقص من قيمة توكيل الشعب لسعد ، بعد أن انفصل معظم أعضاء الوفد ، فتأمر رجال الادارة والعمد بأن يجمعوا توكيلات لعدلى ··!

وتلك هى بداية استعمال نفوذ الادارة لتزييف ارادة الشعب !

وتبالغ الاغلبية فى اتهاماتها حتى تدمغ العدليين بالخيانة الكاملة .. وتلك هى بداية المهاترات التى لا منطق لها ..

وفى غمرة هذا كله ، يسافر عدلى ليفاوض ·· ويترك وراءه رفيقه ثروت رئيس وزارة بالنيابة يحمل عبء مقاومة سعد بالقوة ·· وأنصاره العدليون يقاومونه بالرأى ··

وقد اتفقت آراء المؤرخين جميعا على أن عدلى كان مخطئا فى اصراره على السفر والمفاوضة ·· اتفق على ذلك حسين هيكل (من الاحرار الدستوريين) فى « مذكراته » وعباس محمود العقاد (وكان من الوفديين) فى كتاب « سعد » وعبد الرحمن الرافعى (من الحزب الوطنى) فى كتابه « أعقاب الثورة » وشفيق غربال (المؤرخ المحايد) فى كتاب « تاريخ المفاوضات » ·· اختلف هؤلاء فى الاسباب ، وفى الحلول التى كانوا يرونها ولكنهم اتفقوا على حقيقة واحدة هى أن عدلى كان مخطئا بغير شك فى اصراره على السفر والمفاوضة ، والرأى العام ضده على هذا النحو ··

وتشبث عدلى هذه المرة يبدو غريبا ·· غريبا عليه هو المترفع

الزاهـد ، واللاعب الرشيق الذى لا يشـارك فى لعبـة اذا رآها خاسرة ٠٠ ولكن ، لعله الأمل الكاذب فى فوز قريب ٠٠ والعنـاد الذى أورثته الخصومة ٠٠ والموقف الحاسم الذى سيفصل فى مستقبل طبقته من جهة أخرى ٠٠ والحاح « أصحاب المصالح » عليه ودفعهم اياه ، مستترين وراءه ..

ذهب عدلى الى لندن ، على رأس وفد كبير .. وبقى سعد فى مصر يحمل لواء المقـاومة ٠٠ الصحف الناطقة باسمه تشن أعنف الحمـلات ٠٠ وهو لا ينقطع عن زيارة الاقاليم والقيـام بالرحلات ، والقاء الخطب النارية ٠٠ ويقابل ثروت رئيس الوزارة بالنيابة هذا النشاط بالعنف فتقع حوادث دامية تعيد الى الاذهان أيام الثورة ٠٠ خصوصا حين سافر سعد الى الصعيد فى رحلة نيلية ، ووقعت على شاطىء أسيوط مجزرة ، انهـال فيها الرصـاص على الباخرة التى تقل سعد ، واندفع المواطنون يحمون الباخرة بأجسادهم ، والبوليس يمنع الباخرة من الاقتراب من الشاطىء فيلقى الاسيوطيون بأنفسهم الى البحر ، يسـبحون الى العمـلاق العجوز ، الواقف على سـطح السـفينة ٠٠ وينجلى اليوم عن قتلى ، وجرحى ، غير من راحوا فى اليم غرقى !

◉❖◉

يروى الدكتور يوسف نحـاس فى كتابه « مفـاوضات عدلى ـ كيرزون » أن عدلى أصر عليه أن يسافر مع وفد المفاوضة الى لندن ، فذهب الى سعد يسأله فقال له : انك ستعمل عملا فنيا ٠٠ فيجب عليك أن تقبل هذا التكليف لمصلحة بلادك !

◉❖◉

سافر عدلى الى لندن فى يوليو ١٩٢١ على رأس وفد كبير يتكون من ٣٠ عضوا ٠٠ بين أعضـاء ومستشارين وسكرتيرين ٠٠ ومكث هناك خمسة شهور متواليات ٠٠ اتصلت فيها المفاوضات عبثا ٠٠

وأول حقيقة تبدو لمن يدرس جو هذه المفاوضات وأوراقهـا ٠٠ هى أن سعد زغلول كان مشتركا فيهـا ، جنبا الى جنب مع عدلى ! لدينا محاضر جلسات المفاوضات ٠٠ ولدينا أقوال الذين اشتركوا فيها أو حاموا حول جوها ٠٠ ولدينا « يوميات » الدكتور « يوسف نحاس » التى تعتبر وثيقة أمينة جدا لهذه المفـاوضات ٠٠ لا نقلب البصر فى ذلك كله الا وجدنا قامة سعد العملاق تلقى ظلها من مصر على هذه المفاوضات ٠٠

كيرزون لا يفتأ يسأل عدلى عن سعد وما يصنعه فى مصر من شغب « انى لا أعرف سعد باشا زغلول ولكن يبدو أنه على شيء من الغرور.. ويخيل لى انه سيجعل مهمتكم شاقة!» وعدلى لايستطيع تجاهل آراء سعد ، ونفوذه الهائل ، فيقول أثناء مناقشة احدى التحفظات : « .. لقد قدمه زغلول باشا على هذه الصورة ! » .. وهو خارج جلسة المفاوضة لا يفتأ يفكر فى سعد ، وما يمكن أن يصنعه ، ويهجس لأصدقائه قائلا : « .. أنا مضطرب أكثر منكم ولكننى أسيطر على أعصابى .. واذا كان ثمة هجوم فانا أول من سيهاجم ، بل اننى أنا الوحيد الذى سيهاجم ، وحتى فى حالة قطع المفاوضات فلن أكون بمأمن من هجمات سعد ! » ..

ويشعر بأنه وحيد .. وأن المسئولية التى يحملها رهيبة هائلة .. فينفجر « .. سأرسل برقية أستدعى بها جميع الاعضاء المنشقين على سعد ليتحملوا المسئولية معى ! » نعم ، فهؤلاء الذين انشقوا على سعد ، وحاربوه ، ودفعوا عدلى الى لندن ، ما بالهم يقعدون الآن فى القاهرة ينتظرون الثمار ، وهو فى لندن وحيد يلتقط لهم الكستناء من النار ..؟

ولكن المنشقين ـ بصفة عامة ـ يريدون الاتفاق بأى ثمن .. الوحيد منهم الموجود فى لندن هو اسماعيل صدقى .. وهو يرتكب مناورات تسيء الى عدلى .. ويحاول توريطه فى التساهل الى أقصى حد .. والمستشارون الشبان يضيقون بذلك حتى ليقدموا استقالتهم احتجاجا على تصرفات صدقى ، ويقولون : لسنا مستعدين للانتحار ! والوحيد الذى يثق فيه عدلى من المنشقين هو عبد العزيز فهمى ، فهو يفكر فى استدعائه وحده على الاقل من مصر ، ولكن ثروت ـ نائب عدلى فى رياسة الوزارة ـ يعارض فى ذلك لان عبد العزيز فهمى «مدقق أكثر مما يجب».. فثروت أيضا يريد التساهل.. وابراهيم الهلباوى يصل الى لندن آتيا بالانباء من مصر ، ويقول لمساعدى عدلى : « ان من رأيى الا تقطع المفاوضات مهما كانت الاسباب ، بل نقبل كل مايسلم به الانجليز»

ويتخاذل عدلى .. ولكن مستشارى وفد المفاوضات هنا يتشاجرون .. منهم من يدفع عدلى الى هاوية التساهل ومنهم من يجذبه إلى بر التشدد .. منهم ـ يوسف نحاس ـ من يطالب ببيان قوى ويقول : انه سيكون وثيقة من وثائق التاريخ : فيهز عضو آخر ـ عبد الحميد بدوى ـ كتفيه هازئا ويقول : ها .. ها .. التاريخ ..!!

ويسجل يوسف نحاس فى يومياته صورة صادقة لموقف هذه البعثة المسكينة ، بين سخط مصر واعراض انجلترا « .. اذا تأملنا حالنا جيدا فسنرى كم مرة ضحكنا ؟ وكم كنا موضع الاستخفاف ؟ أيعرض علينـــا مشروع أقل من مشروع ملنر الذى أبته مصر على بكرة أبيهـــا ، ولا نتحرك نحن ؟! .. ان عدلى يبـــالغ فى التأدب والمجاملة !! » .

والانجليز يعرفون كل هذه الحقائق .. وهم — كما قلت — يبنون سياستهم على أساسها .. الحماية أصبح استمرارها مستحيلا بعد ثورة ١٩١٩ وبعـد كل هـذا التشهير الذى أصـابها .. فلابد من التراجع خطوة .. خطوة واحدة اذا أمكن .. أما سـعد زغلول فلا فائدة من التفـاهم معـه .. يبقى « المعتدلون » وهم قلة ، ضعفـاء بأنفسهم .. هم فى قرارة أنفسهم يوافقون على مايعرضه الانجليز ، ولكنهم يخافون سعد ، وسطوته الشعبية الهائلة ... فلا بد اذن من ابعاده عن الميدان ، ثم التفاهم مع «المعتدلين» على الوضع الجديد .. وتقوية هذا الوضع حتى يصبح أمرا واقعا ..

هكذا رسم الانجليز خطتهم البارعة ..

وبدأوا يلقون الكلمات أمام عدلى ، كالبذور ، تستقر فى نفسه وتنمو .. وتتبلور ..

أول بذرة : ان وجود سـعد يعرقل الاتفـاق .. فيقول لويد جورج لعدلى «أن الهياج والشغب اللذين يحدثهما زغلول يزعجان الوزراء وأعضـاء مجلس العموم ويخيفانهم .. وهم لا يرضـون بحال أن يطأطئوا الرءوس أمام زغلول ، أو أن يسلموا مواصلات الامبراطورية الى بلد يقوده زعماء يصارحون انجلترا بالعداء ! » .

ثم يشـير لويد جورج بلبـاقة الى احتمال نفى سـعد .. فهو يتساءل : كيف لا تتخذ الحكومة اجراءات شـديدة ضده .. ولماذا لا يؤجل البحث عن حل حتى تهدأ الحال .. أى باسكاته .. ولكن عدلى يعرف سعد ، ويعرف المصريين ، فيقول : ان اتخـاذ التدابير الشديدة ضد شخص سعد باشـا لا يخلو من الخطورة ، ومن شأنه أن يعقد المسألة ..

وينهض لويد جورج وهو يقول : يجب التخلص من زغلول .. يجب التخلص من زغلول .

وفى جلسة أخرى يشير كيرزون الى ماتنتظره انجلترا من عدلى ،

فيقول له أن أى مشروع تقدمه انجلترا سيحتاج تنفيذه الى « معاونة ذوى النفوذ مثلك » ‥ ولكن عدلى أيضا يعرف سعد ويعرف المصريين فيقول : « انه ارتبط فى تشكيل الوزارة ببرنامج معين ، وأنه لا يستطيع أن يستمر على غير أساسه ‥ » .

وتنمو البذور فى نفس عدلى ، الانجليز لن يتركوا سعد طويلا ‥ و « السلطان » أحمد فؤاد نفسه قال له قبل سفره : انه لن يرضى بتشكيل وزارة يرأسها سعد أو تمت اليه بأى صلة !‥ وهو — عدلى — وأصحابه لا يستطيعون قبول مايعرضه الانجليز ‥ ومع ذلك فان ضياع ما يعرضونه خسارة ‥ فلم يبق الا أن ينفذ الانجليز ما يعرضون ‥ بغير قبول رسمى من مصر ‥ أى من جانب واحد ‥

ويتحدث بهذه الخواطر مرة مع يوسف نحاس « أرى أن ثمة حلولا ثلاثة للخروج من هذا المأزق : أولها الثورة ، ولسنا مستعدين لها استعدادا كافيا ، وثانيها : الوسائل السلمية ، وثالثها : أن يمنحنا البريطانيون النظام الجديد مباشرة ، ومن غير أن نوقع على معاهدة » ‥

ثم يتحدث عن تشكيل حزب يحمل مسئولية ما بعد ذلك ‥ « هل يا ترى سنوفق الى الاشخاص الذين ينضمون الى الحزب ويسيرون تحت لوائه ؟ ومن أين نجد المال اللازم ؟ ألا يخشى أن تقوم المنازعات بينهم من أول يوم ؟ » ‥

الخطة تتبلور فى ذهنه ‥ وأساسها زحزحة سعد ‥

⊙❖⊙

عاد عدلى الى مصر وهو يعلم ‥ يعلم ما سوف يحدث الى حد يقرب من اليقين ‥ وهو يقر هذا الذى سيحدث ، ولكنه يراه على أية حال مخاطرة غير مضمونة النتيجة ‥ ثم هو لا يحب أن يتحمل المسئولية الادبية عن تصرفات الانجليز المقبلة ‥ خصوصا بعد الاستقبال الكريه الفظيع الذى قابلته به الجماهير عند عودته ‥ والذى وصل الى حد القاء الأوساخ والقاذورات على رأسه ، وهو جالس فى سيارته ‥ لذلك فلم يكد يصل حتى قدم استقالته من الوزارة ‥

ولكن الانجليز — والقصر — لا يريدان تركه الآن ‥ فتعلق الاستقالة أياما طويلة بغير رفض أو قبول ‥ ويتزايد قلقه ‥

فالموقف يتكهرب ‥ الانجليز عازمون على توجيه الضربة الى سعد بغير شك ‥ فمنذ شهور بعث مندوبهم اللورد اللنبى فى مصر الى وزارة الخارجيـة الانجليزية يقول « لقـد وصل زغلول الى حالة من الزهو والترفع لا يبعـد معهـا أن يهم بضربة كضربة عرابى » ‥ وسعد سادر فى تطرفه ، عازم على أن يسلك طريق الثورة ، التى يرى عدلى « أننا لسنا مستعدين استعدادا كافيا لها » ‥

وفى يوم ٢٢ ديسـمبر ١٩٢١ وجهت السـلطة الانجليزية الى سعد وأعضاء الوفد انذارا بأن يكفوا عن أى نشاط سياسى من القاء الخطب أو الكتابة فى الصحف أو ما الى ذلك ، وأن يغادروا القاهرة الى بلادهم فى الريف .

ورفض أعضاء الوفد الانذار وهم : سـعد زغلول ، فتح الله بركات ، عاطف بركات ، سينوت حنا ، مصطفى النحاس ، مكرم عبيد .. وكتب سعد زغلول الى الجنرال الانجليزى الرد الشهير «سأبقى فى مركزى ، مخلصا لواجبى ، وللقوة أن تفعل بنا ماتشاء ، أفرادا وجماعات ، فانا جميعا مستعدون للقاء ما تأتى به ، بجنان ثابت، وضمير هادىء »

وتندلع المظاهرات فى شوارع القـاهرة ، مصطدمة بالانجليز ، عاصفـة بكل شىء ‥ ويسرع الشباب الى حديقـة بيت الأمة وقد قرروا أن يدافعوا بصدورهم عن سعد اذا حاول الانجليز انتزاعه ، فلا ينصرفون الا حين هددهم سعد بأن يبيت تلك الليلة الشـاتية معهم فى الحديقة ‥ وفى الصباح الباكر يأتى الانجليز ‥

ويصف « عبد القـادر حمزة » خروج سعد الى المنفى فى سطور خالدة :

« ‥ كان هنـاك جمـاعة قليلون من عامة الشعب ، فهموا أن أباهم سـعدا سيؤخـذ فوقفوا ، ولولا أنهم رجال ، وأنهم يرون خصمهم أمامهم ، ويكرهون أن يشمت فيهم ، لأرسلوا الدموع ‥ ولم تكن بى حاجة لان أجرب دخـول بيت الأمة لان الجنـود كانوا يضربون نطاقا حوله ونطـاقا على بابه ونطـاقا فى حديقتـه ، وفى أيديهم البنادق كانوا يتأهبون لمعركة حامية ‥

« وما مضت دقيقتان أو ثلاث حتى ضج فجأة كل الذين حولى ،

فنظرت فاذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجب وخادم .. وهم جميعا يمشون في نطاق من الجنود .. رأيته يمشي بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجند والسلاح وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه ، مجهول الاول ، مجهول الآخر ، فأقسم ما رأيت فيه وفى مشيته الا بطلا عالى الرأس مطمئن النظرات .. ولوددت أن رآه معى فى تلك الساعة كل أبناء مصر . اذن لرأوا سعدهم اسدا ، هو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثات ..

« كان يمشي هادئا منبسط الجبين ليس فى خطوه اسراع ولا تثاقل .. ولا فى نظراته ولا فى حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب .. ويده اليسرى فى جيب معطفه ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجودا أكثر من العدم ..

« وما رأيته تلفت يمينا أو شمالا ، ولا وقفت عينه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين ، ولكنه لما رآنا نحن واقفين مد نظره الينا وسرحه فينا ، وحينئذ لم يملك بعضنا أنفسهم ، وسمعت فى الحال قائلا يقول والبكاء يغالبه « الى أين يا سعد ؟ الى أين ؟ الى أين ؟ » ثم غلبه البكاء فانتحب الكل معه ..

« انتحبوا وضجوا لان نصيرهم كان قد بلغ الغاية .. ولقد كانوا الى ما قبل هذه اللحظة حانقين يأبون أن يرى الخصم فيهم ضعفا ، ولكنهم لما شاهدوا بأعينهم سعدهم يؤخذ هذا الاخذ الى حيث لا يعلم ولا يعلمون ، تهدم عزمهم كله ولم يبق فيهم جلد .

« وصمم صبية على أن يخاطروا بأنفسهم فجروا خلف سعد ، عشرين أو ثلاثين كأنهم يهجمون صفا متساندا فى معركة منظمة .. فلما رآهم الجند حولوا وجوههم اليهم وصوبوا البنادق نحوهم يهددونهم بالموت ان هم تقدموا ، وما زال الجنود كذلك وهم يمشون بظهورهم ، حتى وصلوا الى الاتومبيلات وركبوا ..

« ركب سعد وركب الضابطان وركب الجنود كلهم .. ثم تحركت الاتومبيلات ، فلا والله ما رأيت فى حياتى ساعة كتلك ، هلعت فيها القلوب وارتجفت الاقدام ، واشتد البكاء وعلت الاصوات تنادى وتقطعها الزفرات « سعد . يا سعد . الى أين يا سعد » وامتدت الايدى الى الاوتومبيلات كأنها تستعطفها وتسألها أن تقف ، ولكن الاوتومبيلات مضت وكأنها البرق الخاطف ، وتركت الناس فى مكانهم يصيحون يبكون » ..

أليس هذا غريبا حقا ·· !؟

المألوف أن الانسان يكون متحمسا متطرفا شجاعا فى شبابه ، فاذا تقدم به العمر وعرف رخاوة المناصب ، هدأت حماسته وذاب تطرفه ، والنادر من الناس من يحتفظ بحرارته كلها فى سن الكهولة ·· والشباب المتحمس عادة يتطرف ويضحى وأمامه المستقبل فسيح يستطيع أن ينال فيه المكافأة عن تضحياته ·· أما سعد ، فقد كان على العكس من ذلك تماما ·· فهذا الذى كان فى شبابه معتدلا ، وعرف مناصب القضاء ١٤ عاما ، وجلس فى كرسى الوزارة ست سنوات متواليات ، وصاهر الطبقة الارستقراطية ·· يصبح بعد ذلك كله مجاهدا متطرفا ·· فهو فى سن الثانية والستين ــ سن الراحة والاحالة الى المعـــاش ــ يتزعم الثورة ، وفى سن الثالثة والستين يستقبل المنفى البعيد ، المجهول الاول والمجهول الآخر ··

وقد أرسل سعد الى سيشل بالذات لان هذه المنطقة مقرونه فى الاذهان بنفى أحمد عرابى ·· حتى ييأس الناس من عودته ·· وكان سعد نفسه فى سيشـــل كثيرا ما يؤمن بأنه لن يعود ، فيحـدث صحبه بهذا المعنى ، خصوصا حين كان يرى نفسه مريضا ، وفى هذا الجو الرهيب ، فاذا به فى بعض الايام يعجز عن النطق ، يكاد صدره يختنق بالربو الذى يسكنه ··

فماذا فى مصر ·· ؟

عدلى قبلت استقالته ، بعد أن استعجلها عدة مرات ، فهو فى بيته ينتظر الاحـــداث ·· أما الشعب فانه يقـــدم على تجربة جديدة :

فالى جانب المظاهرات ، والاصطدامات ، والدماء التى تسيل ·· أصدر الوفد قرارا يدعو فيه الشعب الى المقاومة السلبية ·· وكان « العدليون » الذين انشقوا على سعد من زمن ــ عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ومحمد محمود ومحمد على علوبة وحافظ عفيفى ــ قد عادوا الى صفوف الوفد بعد اعتقال سعد ·· ولكنهم لما رأوا المقاومة تشتد ، والحركة تتجه الى ثورة جديدة عنيفة ، رفضوا أن يوقعوا على بيان المقاومة السلبية ، فانشقوا عن الوفد من جديد ، وعادوا « عدليين » ··

وكانت المقاومة السلبية التى دعا اليها الوفد ، من شقين :
الاول ــ عدم التعاون ·· فـ « ليس لعامل مصرى أن يخـــدم

انجليزيا ولا لمصرى أن يستخدم انجليزيا .. فلا يوكل محاميا انجليزيا ولا يستشير طبيبا انجليزيا » وعلى الاهالى أن يتجاهلوا وجود الموظفين الانجليز فى المصالح وأن يرفعوا أعمالهم الى الموظفين المصريين فقط .. وعلى المحامين أن يعملوا على رفض المنازعات المنظورة أمام قضاة انجليز فى المحاكم بالطريق الودى .. وعلى الموظفين الخاضعين لرؤساء انجليز ألا يتلقوا منهم الاوامر ولا ينفذوا تعليماتهم ، بل يعملون الى تصريف الامور بمحض وطنيتهم .. أى عدم التعامل بأية صورة من الصور مع أى انجليزى من الانجليز الذين كانوا منبثين فى الحكومة والتجارة والقضاء وفى كل ميدان .. وكان على رأس بنود عدم التعاون . امتناع أى سياسى مصرى عن تشكيل الوزارة ما دام الوضع الحاضر قائما .. وليحكم الانجليز بالقوة السافرة اذا شاءوا .

والثانى ـ المقاطعة .. فعلى المصريين أن يقاطعوا البنوك الانجليزية بسحب ودائعهم منها ووضعها جميعا فى بنك مصر .. وعلى التاجر المصرى الذى يستورد بضاعته من الخارج أن يشترط ألا تأتى بضائعه على سفن انجليزية .. وعلى المسافر المصرى ألا يستعمل البواخر الانجليزية .. وعلى عمال الموانىء أن يمتنعوا عن شحن أو تفريغ السفن أو البضائع الانجليزية .. وعلى كل مصرى ألا يتعامل مع أى شركة انجليزية ، كشركات التأمين وغيرها .. وعليه ألا يشترى الا البضائع المصرية .. وأن يقاطع المهمات الانجليزية والسلع الانجليزية مقاطعة تامة .. والعمل على استيراد الضروريات من بلاد غير انجليزية ..

ومضت لجان الوفد تنفذ هذه القرارات الخطيرة وتبشر بها .. فى البيوت والمساجد والكنائس .. عن طريق النقابات والجمعيات والهيئات ..

ووقع على هذه القرارات الخطيرة أعضاء هيئة الوفد الثانية التى تألفت بعد نفى سعد وصحبه : حمد الباسل . ويصا واصف . على ماهر . جورج خياط . مرقص حنا . علوى الجزار . مراد الشريعى واصف غالى ..

واعتقل الانجليز هؤلاء الاعضاء ، فتكونت هيئة وفد ثالثة من : المصرى السعدى . حسين القصبى . مصطفى القاياتى . سلامة ميخائيل . فخرى عبد النور . نجيب الغرابلى ..

وعاشت البلاد شهرين من المقاومة والفوضى .. مقاعد الوزارة

خالية ، لا يجرؤ حتى أرخص المستوزرين على الاقتراب منها ٠٠ والجهاز الحكومى الذى يسيطر عليه الانجليز فى حالة شلل مطلق ٠٠ والاغتيالات تتربص فى الشوارع المظلمة ٠٠ والصحف تعطل بالعشرات ٠٠ وثكنات قصر النيل مكتظة بالمعتقلين ٠٠ ولا أحـــد يدرى الى أين المصير ٠٠

وعاد الانجليز يفكرون فى الحل الذى بحثوه مع عـــدلى ٠٠ أن يسلموا من جانبهم بالحقوق التى وافقوا على اعطائها لمصر ، دون أن توقع مصر صكا بقبولهـــا .. لان أحدا فى مصر لا يمكن أن يقدم على هذا التوقيع فى وجه هذه المقاومة ..

ولعب عبد الخالق ثروت الدور الاول من هذه الاتصالات وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد وبمقتضاه أعلنت انجلترا انتهاء الحماية ، والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ٠٠ مع تحفظات أربعة : تأمين مواصلات الامبراطورية.. الدفاع عن مصر ٠٠ حماية المصالح الاجنبية والاقليات ٠٠ السودان ٠٠ يترك البت فيها لمفاوضات حرة مقبلة .. وكان المتفق عليه أن يصدر دستور وأن ينتخب الشعب برلمـــانا وأن تقوم الوزارة البرلمـــانية بهذه المفاوضات ٠٠

وعلى أســـاس هـــــذا التصريح ، ألف ثروت الوزارة ٠٠ وأعلن الاستقلال ، ونودى بفؤاد ملكا ٠٠ وتألفت فى ٣ أبريل سنة ١٩٢٢ لجنة لوضع الدستور ٠٠

كانت هذه الخطوات كلها مكاسب لمصر ، لا شك فى ذلك ٠٠ اذ عادت شخصيتها الدولية الى الظهور ٠٠ وأصبح ممكنا أن يتولى أبناؤها أمور الحكم فيها ٠٠ وان كان ذلك أدنى من الاستقلال التام بكثير ٠ وهنا يتردد ســـؤال مزمن : لمن كان الفضـــــل فى هذه الخطوة ٠٠ ؟

للساسة الذين قاموا بالاتصالات معالانجليز حتى صدر تصريح ٢٨ فبراير ٠٠٠

أو للزعيم الذى يسكن سيشل ٠٠ ؟

انه قطعا للزعيم الذى يسكن سيشل ٠٠ ولا أقصـــــد بذلك أن الفضل يعود له شخصيا ، ولكن يعود الى الجماهير التى يمثلها ٠٠ فلو كان الامر للمعتدلين لقبلوا « تنظيم الحماية » دون أن تنشب ثورة أو يراق دم : والانجليز عندما أصدروا هذا التصريح لم يكونوا

واقعين تحت ضغط الساسة المعتدلين ، ولكن تحت ضغط الجماهير التى تقاطع بضائعهم : وتقتل موظفيهم ، وترهب المستوزرين اذا طافوا بمقاعد الحكم ، الجماهير التى لا يعرف أحد الى أى مدى يمكن أن تذهب مقاومتها .

ولم تتوقف المقاومه بعد صدور التصريح وتشكيل وزارة ثروت .. فالاغتيالات ما زالت تترى وأعضاء الوفد يعتقلون فوجا بعد فوج .. ويقدمون الى المحاكمة ، وتصدر ضدهم الاحكام بالاعدام

.. وثروت يلجأ الى أسلوبه العنيف فى القهر .. فيصادر الصحف بكثرة .. ويصدر الاوامر بعدم ذكر اسم « سعد » فى الصحف أو فى أى مجال آخر .. حتى أصبح من له ولد اسمه سعد يخاف اذا ناداه في الطريق أن يتعرض له البوليس بما يكره ! وأصبح الواحد من الشباب يمر بأحد جنود البوليس فيصيح « يا سعد » ثم يجرى ..

ولكن المقاومة الشعبية لا تصل الى حد عرقلة الخطة الجديدة ، وهذه الخطة الجديدة أو هذا البناء الجديد الذى يقام يحتاج الى من ينهض به .. ويجتمع أعضاء حزب الامة القدماء ، والذين يطلق عليهم منذ الثورة اسم حزب عدلى ، يجتمعون ويقررون تكوين حزب رسمى جديد .. وهذا منطقى جدا : فقد كانوا من قديم يطالبون باستقلال نسبى يتيح للمصريين فرصة توجيه جهاز الحكم فى مصر ، والدستور يجعل « الامة » سلطة ثالثة الى جانب السلطة الشرعية « القصر » والسلطة الفعلية « الانجليز » .. وهذا البناء الجديد ليس الا تحقيقا كاملا لهذه الاهداف ..

ويتكون حزب الاحرار الدستوريين .. أعضاؤه هم تقريبا أعضاء حزب الامة القدامى ، وهم أعضاء لجنة الدستور القائمة ، ويرأس الحزب عدلى .. ويكتب له خطبة الافتتاح نفس المفكر الذى رسم فلسفة الاعيان منذ خمس عشرة سنة : أحمد لطفى السيد ويصدر الحزب جريدة « السياسة » لتكون لسانا له ، يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ..

ويتم وضع الدستور .. وبالرغم من أنه نص على أن « الامة مصدر السلطات » الا أنه لم يلغ سلطة الملك .. فظل بذلك تدخل الملك في شئون الحكم ، شرعيا .. ولم يكن ممكنا أن يصدر الدستور على غير هذه الصورة ما دامت قد وضعته لجنة ترعاها الحكومة ، وما دام لا بد له من موافقة الملك لاصداره .. ولو أنه قد وضعته

جمعية وطنية منتخبة من الشعب كما طالب سعد لالغيت سلطة الملك تماما ·· ولكن مصر لم تكن قد نضجت بعد حتى تقوى على تحقيق هذه الغاية ، فجاء الدستور ناقصا ·· وان كان خطوة كبيرة الى الامام ··

على أن الخلاف القديم بين القصر والاعيان المصريين يتجدد ، فالملك فؤاد يبدأ في مناورات للعبث بالدستور قبل أن يصدر ، وتسقط وزارة ثروت ويتولى الوزارة رئيس سابق للديوان ، ورجل ترافع منذ سنوات ضد محمد فريد بتهمة أنه يطالب بالدستور : توفيق نسيم ·· فحاول أن يحذف عدة فقرات من الدستور ، منها الفقرة التى تنص على أن « الامة مصدر السلطات » ·· ثم يعقبه يحيى ابراهيم ·· ونجد في محاضر جلسات حزب الاحرار الدستوريين قرارات متوالية تطالب بصدور الدستور كما وضعته اللجنة ·· ويقوم عدلى وأصحابه باتصالات كثيرة لهذا الغرض ·· ويشن عبد العزيز فهمى ــ صاحب الجهد الاكبر فى وضع الدستور ــ يشن حملة عنيفة على تلاعب القصر فى صورة خطابات مفتوحة الى رئيس الوزراء « .. انك لا بد قائل معى ومع كل من لا يلهيه نعيم يومه من شقاء غده ان السيادة هى للامة والسلطان للامة ومصدر كل هداية فى البـــلاد هو الامة » .. و .. « كأنما ضحى المصريون بما ضحوا لفائدة رجال السراى ، وكأنما تنازل الانجليز عن الحماية واعترفوا لمصر بحق التمثيل الخارجى لفائدة السراى ! » ·

وكان توفيق نسيم قد برر رغبته ــ أى رغبة القصر ــ فى حذف فقرة « الامة مصدر السلطات » بأن فيها جرحا لاحساس الملك !! فرد عبد العزيز فهمى « ·· اذا كانت سيادة الامة وكونها مصدر كل سلطة هى أهم ما تسعى الشعوب لحمل امرائها على الاقرار به لها وهى التى تقوم الثورات وتستل العروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الامراء ، فما معنى أن تكون تلك السيادة آتية لمصر من تحت أنياب الانجليز بعد الجهود والتضحيات الكبرى التى قام بها المصريون فى وجه الانجليز ، ثم يأتى أناس من المصريين أنفســهم فيهبونها غنيمة باردة لامراء البيت المــالك بتلك العــلة ، علة عدم جــرح الاحساس ؟ اللهم ان هذا كلام المستهزئين الذين يستضعفون هذه الامة فيضيعون أهم حق لها بمثل هذا التعليل السخيف !! » ..

ويكون لهذه المقاومة العنيفة فضل صدور دستور ١٩٢٣ بصورته المعروفة ··

وتبدأ التهيئة لاستقبال الحياة الجـــديدة والعمل على أن تكون هادئة ‥ ولكن المقاومة الشـــعبية ما زالت مستمرة ‥ والقنابل والاغتيالات تغمر القطر ‥ وقبل صـدور الدستور بأيام اعتقلت السلطة الانجليزية هيئة الوفد الثالثة ، وتكونت هيئة رابعة دعت الى مواصلة الكفاح ، ووقع البيان : حسن حسيب • على الشمسى • سلامة ميخائيل • حسين هلال • مصطفى بكير • ابراهيم راتب • عطا عفيفى • عبد الحليم البيلى • فلا بد للتهـــدئة من اتخاذ قرار حاسم ‥ الافراج عن سعد وصحبه ‥

ويعود سعد فتســتقبله الجماهير استقبالا لم يسبق له مثيــل قط ‥

ويخوض معركة الانتخابات الاولى ثلاثة أحزاب : الحزب الوطنى وحزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين ‥ ويكتسح سعد المعركة اكتساحا رهيبا ‥

وكان الاحرار الدستوريون يعتقدون حتى ســاعة المعركة أنهم فائزون فيها ، فأذهلتهم النتيجة ‥ فحتى ذلك الوقت كانوا على غير بينة من ظهور القوة الجديدة ‥ أو من الصورة الجديدة « للامة » فكانت دهشتهم بالغة عندما وجدوا أن الذين نجحوا فى الانتخابات ليسوا هم الاعيان ورؤساء العائلات وأصـــحاب الاطيان ، ولكنهم الثوار والمحامون الشـــبان ‥ الذين رأسوا لجان الاقاليم وتزعموا الشعب وجمعوا التوقيعات ! ‥ ولم يفز من غير حزب سعد الا عشرة فقط ‥ ستة من حزب الاحرار وأربعة من الحزب الوطنى ‥ !

وأمسك الملك فؤاد الذى أقسم لخاصته منذ خمس سنوات ألا يعين وزارة لها أى صلة بسعد .. وأمسك القلم ليوقع خطابا بتكليف سعد بتشكيل الوزارة ‥ ورد سعد بخطاب يؤكد فيه آنه آت بارادة الامه وحدها « ‥ وأنه ينوى « عدم السماح لاى كان » بالاستخفاف بالروح الدستورية ، كما أنه وضع برنامجه « طبقا لما أراه وتريده الامة ! » ..

ويدخل هذا الفلاح قصر الملك .. يحـــدثه بكلام لا مواربة فيه عن ارادة الامة .. واذا اختلف معـــــه ، قال له ببســــاطة : اذا أستشير الشعب !.. فينظر فؤاد من النـــافذة ، ويرى جموعا تهتف لزعيمها ، فيحول بصره الى كلمة « الصبر » التى يضعها على مكتبه ، ويسكت ..

الآن .. تحققت نبوءة لطفى السيد بحذافيرها .. الانجليز لم يخرجوا وسلطة القصر لم تذهب .. فقط ظهرت بين القوتين سلطة ثالثة هي سلطة الامة .. وأصبحت الوزارة برلمانية تختارها الامة .. تحققت النبوءة بحذافيرها ، لا أقل .. ولا أكثر ..

ولكن « الامة » التي اتخـــذت مكانهـا بين القصر والانجليز ليست هى بالضبط « الامة » التى تحدث عنها لطفى الســيد ، والتى حاول أن يرسمها حزب الاحرار الدستوريين .. الامة التى ظهرت ليست هى الاعيان ورؤساء العـائلات بالضبط .. فماذا يصنع الاحرار الدستوريون .. ؟

هل يقبلون التطور .. كالفلاسفة ؟ .. كلا ..

هل يتمسكون بالمبادىء التى دعوا اليها بصرف النظر عن نتائجها بالنسبة اليهم ؟ .. كلا ..

انهم يتنكرون الآن لها .. وعبد العزيز فهمي نفسه يقول بعد مولد دستوره بسنتين انه « كان يظنه مناسبا لبلادنا ولكن العمل أثبت أنه ثوب فضفاض ! » .. والقوتان الاخــريان ــ الانجليز والقصر ــ لم تسلما طبعا بظهور « الامة » كقوة ثالثة .. ثم ان هذا الطرف الثالث يقوى ويشتد تدريجا .. فلو تركت له الحيـاة النيابية فسوف ينتهي به الامر الى تحطيم القوتين الاخـــريين . ويتحالف الانجليز والقصر ، ويتربصان بالحياة النيابية الدوائر ، ويتحالف معهما ــ ويا للاسف ــ حزب الاحرار ..

فاذا قتل عبد الفتاح عنايت سردار الجيش الانجليزى فى شارع القصر العينى اهتزت الدنيا ومادت الارض تحت الاقدام ! واتخذ كل المتربصين بالدستور الوليد هذا الحادث دليـــلا لادانة الحيـاة النيابية والحكم عليها بالفوضى ! .. وتناسى هؤلاء المتربصون كل الجرائم التى حفل بها عصر ما قبل الحياة النيابية والتى هدأت بمجرد قيام البرلمان .. !

ويزحف اللورد اللنبى على رأس فرسانه المسلحين الى رياسة الوزراء .. ويطلب من سـعد أن يخضع لطلبـاته فيرفض .. ويسـتقيل ويعلن فى البرلمان أن أغلبيته سوف تؤيد أية وزارة أخرى ترعى مصالح الوطن ..

ولكن اصابة هذه الاغلبية هى هدف الانقلاب .. فيعهد الملك فؤاد الى أحمد زيور بتأليف الوزارة ، ويحل البرلمان ، وتجرى

انتخابات جديدة .. وبعد أن ينعقد البرلمان الجديد بساعة واحدة يتبين أن الاغلبية ما زالت الى جانب سعد ، فيحل البرلمان الجديد أيضا ، بعد ساعات قليلة من مولده ! .. والاحرار الدستوريون يؤيدون هذا كله ، ويشاركون فيه .. ومن وزرائهم فى هذا العهد عبد العزيز فهمى نفسه ، المدافع الشهير عن مشروع الدستور !

هكذا يتمزق الدستور بعد مولده بشهور .. ويخضب دمه أيدى الدعاة الاقدمين .. وتجد « القوة الثالثة » انها لم تكسب الكثير الذى توهمته .. وان السلطة الفعلية والسلطة الشرعية ما زالتا تخفيان نفس الشر القديم ..

⊙❖⊙

أين عدلى ؟ .. وأين سعد ..؟

انهما منذ أحداث ١٩٢٤ ، يمران بفترة غريبة ، من السأم والملل والفتور .. كأنهما يشعران بأن الدور قد انتهى وأن المعركة قد سكنت ، وأن القدر رسم لدوريهما هذا النطاق ..

فعدلى ، منذ سقط حزبه فى الانتخابات قد أدرك الموقف .. وعرف الصورة الجديدة للامة .. وهو يرى بعينه النفاذة ماسوف ينحدر اليه الصراع .. والحلقة الضيقة التى سينحصر فيها اللعب منذ اليوم فيعود اليه زهده وترفعه..ويستقيل من رياسةالحزب ويقضى أكثر وقته متنقلا بين ربوع أوروبا .. !

وسعد بعد كارثة السردار يذهب الى فندق مينا هاوس عند سفح الاهرام ، حيث يعتزل الناس..وتطوف برأسه ذكرياتالثورة العرابية... والجمعية التشريعية،، المقاعد الخشبية فى قهوة متاتيا والمقاعد الوثيرة فى صالون الاميرة نازلى .. ثم الثورة التى اقترنت باسمه .. والنفى الى مالطة وسيشل وجبل طارق .. ثم العودة الظافرة ، والجماهير الهاتفة .. والنصر المؤزر..ثم الرصاصةالتى انطلقت الى قلب السردار لتمزق الستار الزائف .. ولتكشف الخاتمة على حقيقتها : لا استقلال هناك ولا دستور .. لا شيء من هذين قد استقر فى صورة كاملة راسخة .. انما هى فقط خطوة مجيدة باسلة فى الطريق اليهما ..

ويحول بصره عن الرمال المترامية ، ويضحك فى سخرية مريرة ، ويقول للقليلين الجالسين معه ملخصا تجربة الوزارة الشعبية كانت غلطتنا اننا صدقنا اننا مستقلون ..!

ان الهتافات تخفت .. وهو يعرف الآن مقـدار الحلو والمر بالضبط ..!

الثورة قد انتهت .. وعاد الناس الى أمور معاشهم ومنافعهم .. الى زراعتهم وصناعاتهم وأعمالهم .. وخروجه من الوزارة وتمزيق الدستور لم يقابل بالثورة التى قوبل بها نفيه الى مالطة أو الى سيشل .. والامة كسبت فقط ما رسمه لها لطفى السـيد منذ عشرين سنة .. فهى لم تكسب السيادة الكاملة ، ولكنها كسبت لنفسها مكانا بين القوتين الاخريين .. وعليها بعد ذلك أن تكافح كفاحا مريرا لكى تحتفظ بهذا المكان ، ولتزيده اتساعا ..

وسوف تنحصر الحياة السياسية لمدة ربع قرن آخر فى هذا النطاق : صراع ومناورات بين القوى الثـلاث : الانجليز والقصر والأمة .. وسوف تقوم حرب عالمية ثانية ، قبل أن يتحد الوعى ويستعد الشعب لانطلاق جديد ..

هكذا كان سعد وعدلى منذ سنة ١٩٢٤ كبطلين من زمان غابر أدركا عصرا فاترا لا هم له الا الحديث عن أمجادهما .. ولكنهما لا يعتزلان الحياة كلها بالطبع .. بل يجنحان الى السلم والاعتدال ويلتقيان لآخر مرة فى ائتلاف : سعد رئيس مجلس النواب سنة ١٩٢٧ وعدلى رئيس الوزارة الائتلافية المؤيدة من البرلمان ..

ويمرض سـعد فى قريته « مسجد وصيف » .. ويحج اليه الناس والاصدقاء القدامى .. وقد أصبح على القرية كلها جلال التاريخ .. حتى الفلاحون العاملون فى الحقول يبتسمون للزوار ، ويفخرون بأن فى قريتهم الصغيرة سعد .. وتتراكم عليه الامراض التى لم يبال بها حتى أدرك السبعين .. وعندما يدركه الموت ، يلفظ آخر كلماته هامسا :

ــ « أنا » انتهيت !..

ولـكن الجهـاد المرير من أجل مزيد من الحـرية ومزيد من العدل .. لا ينتهى ..!

الإسلام .. وأصول الحكم



علي عبد الرازق



شيخ شاب ، كان يعمل - سنة ١٩٢٥ - قاضيا شرعيا لمحكمة المنصورة ، ولكنه لم يكن ككل من أخرج الازهر فى ذلك الوقت من « مشايخ » ، فهو من أسرة « عبد الرازق » الغنية العريقة .. والتى تميزت بين الأسر الغنية العريقة بالاهتمام الخاص بالثقافة والفكر ..

وفى تلك السنة - ١٩٢٥ - كان الدستور معطلا ، وسعد زغلول مبعدا عن الحكم ؛ وكان الملك فؤاد يحكم مصر حكما استبداديا بواسطة وزارة من حزبى الآتحاد والاحرار الدستوريين يرأسها أحمد زيور ..

وفى تلك السنوات ، سقطت الخلافة الاسلامية فى تركيا تحت أقدام أتاتورك الذى طارد فى بلاده الخلافة والاسلام على السواء.. وخلت الدنيا من الخلافة الاسلامية .. لاول مرة منذ أكثر من الف عام ، أى منذ وفاة النبى ..

والتقط الانجليز « فكرة الخلافة » الواقعة على الارض .. نعم ، لماذا لاينشئون هم خلافة اسلامية جديدة تنمو فى رعايتهم ؟. وان الخلافة لحجة قديمة للتغرير بالمسلمين ، وخلف عباءتها الواسعة تنكرت أنواع من المظالم والخطوب .. وهى قد خرجت من مكة وتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة واستامبول ، يمتطيها الحاكم الذى يستبد بالمسلمين .. أمويا فى دمشق ، عباسيا فى بغداد ، فاطميا فى القاهرة ، عثمانيا على ضفاف البوسفور .. واليوم - بعد الحرب العالمية الاولى - أصبح المستبد بهذه البلاد هم : الانجليز ؛ فلماذا لا يعززون استعمارهم - أيضا - بالخلافة الاسلامية ؟.. واذا كان من المستحيل - هذه المرة - أن يكون الخليفة انجليزيا ، فالعملاء بين المسلمين ما أكثرهم ، لماذا لا يجعلون واحدا منهم خليفة للمسلمين ؟ وما هو أكبر عرش فى الشرق الأدنى ، وأقدم عرش يحمل بركة الانجليز ويعترف لهم بالجميل ؟.. انه عرش مصر الذى لولاهم لاقتلعته زوبعة عرابى .. والجالس على العرش « فؤاد » الذى عينوه سلطانا فملكا منذ سنوات لا تبلغ العشر ..

وسمع الملك فؤاد هذه القصة .. فبدأ يحلم بها .. وان لم يطلق لحيته كما صنع فاروق من بعد ..!!

وأدرك القصة أيضا الاذناب .. وتجار الدين .. فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة .. التى علقوا بقيامها شرف المسلمين !.

والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون ، لا أحد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد ولا أحد يجسر على أن يحصب « كهنة » الدين بحصاة . . ولكن الشيخ الشاب ، قاضي محكمة المنصورة الشرعية ، زين له شبابه وتحرره أن يقف ضد هذا كله . . وأن يعكف على البحث بضع سنين ثم يخرج على النـاس بكتاب صغير لا تزيد صفحاته على المائة الا قليلا ، اسمه « الاسلام وأصول الحكم » . . فيكون له دوى القنبلة ، ويكون من شأنه أن يسقط وزارة ويفض ائتلافا ويحول فى السياسة المصرية تيارا خطيرا .

◎❖◎

ماذا قال «الشيخ» على عبد الرازق فى هذا البحث الخطير ؟

* تساءل — أولا — عن سند هذه الخلافة . . فقرر أن القرآن والأحاديث لم يرد فيهما أى نص على الخلافة كنظام للحكم يجب أن يلتزم به المسلمون . بقى سند شرعى ثالث هو : الاجماع ، أى اتفاق المسلمين على شىء . . فقرر أن الخلافة الاسلامية لم توجد أبدا بالاجماع ، فباستثناء الخلفاء الثلاثة الاولين — أبو بكر وعمر وعثمان — لم تقم الخلافة الاسـلامية أبدا على أسـاس الاختيار الحر . بل قامت بقوة السيف ، وعلى أسنة الرماح « فذلك الذى يسمى عرشا لا يرتفع الا على رءوس البشر ، ولا يستقر الا فوق أعناقهم . . وذلك الذى يسمى تاجا لا حياة له الا بما يأخذ من حياة البشر ولا قوة الا بما يغتال من قوتهم » . .

وضرب الأمثلة الكثيرة التى تدل على أن الحكومة كانت تقـوم بالقوة ، فروى — مثلا — قصـة مبايعة يزيد لولاية العهد بعـد معاوية ، حين جلس معاوية وبجانبه ابنه يزيد . . وأجلس حوله كبار رجال الدولة . . ثم وقف رجل يمسك سيفا وقال : أمير المؤمنين هذا « وأشار الى معاوية » فان هلك فهذا « وأشار الى يزيد » فمن أبى فهذا « وأشار الى السيف ! » . . وروى كيف استباح يزيد دم الحسين ليستقر فى الخلافة . . وكيف سمى أول الخلفاء العباسيين «بالسفاح» لكثرة ما كان يسفح من دماء المسلمين . .

وسـاق دليلا آخر على أن الخـلافة كانت حكما استبداديا غاشما هو : ان العرب طيلة هذه القرون الطويلة برزوا وتفوقوا فى كل أنواع العلوم والفنون ، ما عدا : علم السياسة . . ولا يختفى

علم السياسة من الوجود الا اذا كان الحكم استبداديا ، تعسفيا ، مطلقا ..

* ثم تحدث عن الرأى القائل بأن الخلافة ضرورية لبقاء الدين الاسلامى ، فقال : « معاذ الله !.. لايريد الله جل شأنه لهذا الدين الذى كفل له البقاء أن يجعل عزه وذله مرتبطين بنوع من الحكومة ، ولا بصنف من الامراء ! ولا يريد الله جل شأنه بعباده المسلمين أن يكون صلاحهم وفسادهم رهن الخلافة ولا تحت رحمة الخلفاء ! » .

* وخلص من ذلك الى أن القرآن لم يحدد شكلا معينا للحكومة .. بل اشترط مجرد وجود حكومة ، أيا كان نوعها .. ملكية أو جمهورية أو ديمقراطية أو اشتراكية .. أما الخلافة بالذات « فليس بنا من حاجة اليها لأمور ديننا ، ولا لأمور دنيانا ، فانما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الاسلام وعلى المسلمين ! »

وبعد أن فرغ المؤلف من بيان حكم القرآن والسنة ، انتقل الى السوابق التاريخية فتساءل :

* هل كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم رسولا أو ملكا .؟

فقال ان الرسالة شىء والملك شىء آخر ، وقد حدث كثيرا أن وجد الرسول والملك فى وقت واحد .. وضرب مثلا بكلمة المسيح الشهيرة « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وقال ان هذه الكلمة فيها معنى الاعتراف بسلطة القيصر الزمنية .. كما أن يوسف عليه السلام كان موظفا فى حكومة فرعون مصر .

أما بالنسبة للنبى .. فقد لاحظ المؤلف أن علماء الاسلام ليس لهم رأى واضح فى شأنه ولكن الاعتقاد الشائع بين المسلمين أن النبى كان رسولا وحاكما ... وأنه أسس دولة سياسية .. ثم أخذ يناقش هذا الاعتقاد :

* فاذا كان النبى قد قصد حقا الى اقامة دولة سياسية يحتذى عليها من بعده .. فلماذا كانت دولة النبى خالية من كثير من أركان الدولة الرئيسية ؟.. انه لم ينشىء ميزانية للدولة ولا دواوين للشئون خارجية وداخلية وغيرها .. ولم يضع نظاما مكينا للقضاء والجيش . فكيف يقال بعد ذلك أن النبى أراد انشاء دولة ؟ كيف يكون قد أراد انشاء دولة سياسية وهو لم يتحدث الى رعيته فى شكل الشورى وكيف تكون ..!

* فاذا سلمنا جدلا بأن النبى أراد أن ينشىء دولة سياسية ، فهنا يقفز سؤال آخر : هل كان انشاء هذه الدولة جزءا من رسالته ، أو خارجا عنها ؟.. أنصار الحكومة الدينية يقولون انها جزء من رسالته .. ولكن على عبد الرازق يقول : ان النبى لم يضع أسسا واضحة للدولة ، بل ترك من جاءوا بعده فى حيرة شديدة يضطربون ويبتكرون .. ولو كانت جزءا من الرسالة حقا لما تصورنا أن يتركها النبى ناقصة بغير بيان ..

* اذن فالصواب فى رأى المؤلف هو أن النبى جاء يبلغ الناس دينا ، لا نظاما للحكم ، وأنه كان رسولا لا ملكا .. هو رسول « كاخوانه الخالين من الرسل .. وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا الى ملك » ..

وساق المؤلف على ذلك أدلة كثيرة :

* فالقرآن تتضافر آياته على أن النبى لم يكن له شأن بالملك السياسى ، وأنه كان رسولا فقط ، وقد أورد المؤلف دليلا على ذلك ٤٥ آية من القرآن ، منها :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا» . «وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل» . «وأعرض عن المشركين ؛ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل» .. «فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » . « فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . « وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا » . « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » . « ما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

* والأحاديث أتى منها بأمثلة مشابهة .. منها ما حدث حين مثل رجل أمام النبى فأخذته رعدة شديدة فقال له النبى : « هون عليك .. فانى لست بملك ولا جبار ، وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة » .

* ثم ان النبى مرسل بهذه الدعوة الى العالم كله.. الى الناس أجمعين ، ولو كانت الدعوة لاقامة حكومة سياسية لما اتجهت الى الناس جميعا » معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد ، وأن تنتظم البشرية كلها وحدة دينية ، فأما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة فذلك مما يوشك أن يكون خارجا عن الطبيعة البشرية ، ولاتتعلق به ارادة الله ! » .

* أضف الى ذلك أن النبى حين أتى بالدين الجديد لم يتعرض للعادات السياسية والادارية الموجودة فى البلاد العربية .. الا أن الدعوة الدينية نفسها قللت ـ بالطبع ـ من الفروق الموجودة بين القبائل والمناطق المختلفة .. كما أنه لم يشر طوال حياته الى « دولة » اسلامية أو عربية ..

* دليل آخر .. ان النبى مات ولم يعين بعده خليفة ولا حاكما .. ولم يحدد نظاما للشورى أو البيعة أو غيرهما ..

فكيف اذا كان من عمله أن ننشىء دولة .. أن يترك أمر تلك الدولة مبهما على المسلمين ليرجعوا من بعده حيارى يضرب بعضهم برقاب بعض ! كيف يتركهم عرضة لتلك الحيرة القاتمة السوداء التى غشيتهم وكادوا فى غسقها يتناحرون ، وجسد النبى بينهم لما يتم تجهيزه ودفنه ..!

* وبعد أن ساق المؤلف هذه الأدلة على أن النبى كان رسولا لا ملكا ، وكان يدعو الى دين لا دولة . انتقل الى خطوة تالية فقرر : ان الرسالة انتهت بموت النبى .. فمن يأتى بعده ليس خلفا له فى الرسالة ، ولا فى هذه الزعامة الدينية .. لأن تبليغ الرسالة قد تم ولا يمكن اضافة شىء اليها بعد .. فالزعامة التى تأتى بعد النبى زعامة جديدة من نوع جديد ليست قائمة على الدين .. هى اذن زعامة مدنية سياسية هى حكومة وسلطان لا رسالة ودين ..

كان أبو بكر أول « ملك » فى الاسلام .. اى أول حاكم دنيوى .. واطلاق لقب « الخليفة » عليه ، لم يكن الا تجاوزا .. لانه ليس خليفة للنبى فى رسالته التى تمت بموته ..

والنظام الذى حكم به أبو بكر كان نظاما دنيويا لا دينيا ابتكروه ولم يأخذه عن النبى ، وبعد موت النبى كانت أول مرة خاض فيها العرب فى ذكر الامارة والامراء والوزارة والوزراء . قال الانصار للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير .. وقال أبو بكر لهم : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء .. وهذا نقاش سياسى بحت ، حول نظام دنيوى بحت ..

والدولة التى أقامها العرب ـ بعد وفاة النبى ـ دولة عربية لا دولة اسلامية .. دولة عربية . وان كان الاسلام هو الذى بث فيهـا الروح ونفخ فيهـا القوة ، الا انها قامت لتأييد سلطان العرب .. وروجت مصالح العرب ، ومكنت لهم فى أقطار الأرض

فاستعمروها استعمارا ، واستغلوا خيرها استغلالا .. شأن كل الأمم القوية التى تتمكن من الفتح والاستعمار ..

* والدليل الذى ساقه على ذلك ، ان الذين رفضوا مبايعة أبى بكر ، أو تأخروا فيها ، لم يعتبروا كفارا ، كما كان يعتبر الذين يرفضون الاعتراف بمحمد .. ذلك ان سلطة أبى بكر سلطة دنيوية يجوز الجدال فيها لا سلطة دينية ..

* على أن الذين تعاقبوا على أمور المسلمين بعد ذلك .. استغلوا كلمة «الخلافة» وما يحيط بها من قداسة ، واستغلوا ان أول من حمل هذا اللقب هو أبو بكر صاحب النبى وصفيه . فتمسكوا باللقب ليكسبوا لأنفسهم قداسة تحمى مفاسدهم من الثائرين ..

وعند هذه النتيجة ، ختم الشيخ على عبد الرازق كتابه قائلا :

« وتلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين .. أضلوهم عن الهدى ، وعموا عليهم وجوه الحق ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين .. وباسم الدين أيضا استبدوا بهم وأذلوهم ، وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة ، وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم .. فصاروا لا يرون لهم وراء ذلك الدين مرجعا ! » .

هذا هو الكتاب .. واضح من سطوره أنه لا يهاجم الخلافة فقط ، ولا الحكومة الدينية وحدها ، بل والنظام الملكى أيضا فلم يكد يخرج الى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع ، ومن جميع الاتجاهات : الملك وأذنابه ثاروا ، لأن الكتاب فيه حملة هائلة على الملوك . وفيه تحطيم شامل لحلم الخلافة البراق ، ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا فى هذا المنطق مايزعزع سلطانهم ، ويعطل منافعهم فى الاتجار بالدين ، ويكشف عن حقيقة هذه العمائم الضخمة ، التى لا ترتفع الا لتستر وراءها الظلم والاستبداد .. ثم هناك الرجعيون بتفكيرهم ، والذين يتملقون مشاعر الجماهير ولو بمجاراة الجهل والظلام ..!!

أما رجال الدين — ولنبدأ بهم — فقد أطلقوا قذائفهم من المقالات والأبحاث والكتب .. ونختار مما أخرجوه كتابا يوضح لك — أيها القارىء — رأيهم .. كتابا اسمه « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » أخرجه فى ذلك الوقت شيخ من علماء الازهر اسمه : محمد الخضر حسين .. شيخ الازهر السابق ..

أهدى الشيخ محمد الخضر حسين كتابه « الى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر الاعظم » راجيا «أن يتفضل عليه بالقبول ، والله يحرس ملكه المجيد ؛ ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد » ..!

ولعله من الطريف أيضا أن نذكر أن على عبد الرازق صدر كتابه بقوله « أشهد أن لا اله الا الله ، لا أعبد الا اياه ، ولا أخشى أحدا سواه ! » مشيرا الى الملك .. وان الشيخ الخضر صدر كتابه ــ بعد الاهداء السابق ــ بالصلاة والسلام على النبى وآله « وعلى كل من حرس شريعته بالحجة أو الحسام وأحسن الحراسة !» .. وهي اشارة أيضا الى أصحاب السلطان واضحة !.

* قال الشيخ الخضر حسين أن المسلمين عرفوا علوم السياسة كغيرهم من الناس . وبرهن على ذلك بنصوص اعتبرها علوما سياسية مثل قول أحسن بن أبى الحسن البصرى « كن للمثل من المسلمين أخا ، وللكبير ابنا وللصغير أبا » ومثل قول معاوية الشهير « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .. اذا شدوها ارخيتها واذا أرخوها شددتها ! » وقوله أيضا «انى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ؛ ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا !» ..

وواضح أن هذه الاقوال من قبيل الحكم المأثورة ، وهى شيء آخر تماما غير العلوم السياسية بمعناها الحقيقى ..

ويلاحظ أيضا ان الشيخ لم ينتبه وهو يضرب المثل بكلمة معاوية الأخيرة أنه يسوق دليلا على الاستبداد السياسى الذى يريد أن ينكره ، فمعاوية يقول انه يترك الناس أحرارا يقولون ما يشاءون ما داموا لا يمسون سلطانه ..!

* ورد على قول على عبد الرازق أن الملكية تنافي الحرية والاخاء والمساواة ولا تقوم الا بالقهر ، فقال : « ان نظام الملكية لا ينافى الحرية والعدل » ودافع عن حكم الفرد المطلق فقال « ان الحكومة التى يرأسها فرد اذا كانت تعمل على طريق الحزم والشريعة العادلة لم تجد من مبادىء الاسلام ما يمنع من الاذعان لها ! » الشيخ اذن يدافع عن الحكم المطلق .. !!

ولم يقل لنا : اذا أخطأ هذا الحاكم الفرد وخرج عن الشريعة ماذا نفعل به ؟ .. هل نثور عليه ؟ . ان معنى ذلك أن تكون الحياة سلسلة ثورات مما يهدم الاستقرار ! .. ثم ماذا يصنع الناس اذا

كان الحاكم الفرد أقوى منهم بسلاحه وعتاده ؟ .. أليس من الخير اذن أن تكون الدعوى موجودة فعـلا .. وان يكون الحاكم مقيدا أصلا .. ؟

ألا يكتفى أن نضرب له مثلا باليمن .. فيها حاكم فرد يحمل لقبا دينيا هو « الامام » ويسمي أولاده « سيوف الاسلام » وأنه مع ذلك يحكم اليمن حكما لا حاجة بنا الى شرحه ؟ وان الناس حين ثاروا عليه هناك قطع رقابهم .. ؟

* لم يكتف الشيخ بذلك .. بل قال ان ملوك الاســلام كلهم — منذ كان الاسلام — لم يكونوا مستبدين ! .. وهو يقول « طالع أيها القـارىء كتب التاريخ كتـابا كتـابا فلا أحسـبك تعثر على مثال يشهد بأن ملـكا من ملوك الاســلام غضب لـكتاب ألف فى السياســة أو كره الناس أن يترجموا كتابا فى السياســة وانى لا أعرف من ملوك الاسلام جميعا من ضـغط على حرية الرأى الا السلطان عبد الحميد !! » ..

وكان الملك فؤاد — طبعا — يضغط فى ذلك الوقت عينه على حرية الرأى ..

* وأكد أن النبى كان ملكا — بمعنى انه كان حاكما دنيويا ، بدليل مزاولته أنواعا من صور الحكم والقضاء ..

ولم يلبث نطاق المعركة أن اتسع .. حتى شارك فيه كل انسان تقريبا .. وارتفعت حرارة الجدل حتى فقد أصحاب الاقلام أعصابهم وبدأوا يستعملون أقذع الاوصاف ..

وتزعمت الصحف التى تهاجم الكتاب جريدة « الاخبار » لسان حال الحزب الوطنى فى ذلك الوقت .. فهى تكتب فى افتتاحيتها يوما تقول « لم يقع من نفوسنا موقع الاستغراب أقدام الشيخ على عبد الرازق على اصدار هذا الكتاب لاننا نعرف عنه فى كل حياته ضعفا فى تحصيل العلوم ، وطيشا فى الرأى والحادا فى العقيدة ! هذا الى أنه انغمر منذ سنين فى بيئة ليس لها من أسباب الظهور سوى الافتئات على الدين وتقمص أثواب الفلاسـفة والملحدين .. وصار خليقا بلقب «الاستاذ المحقق» و «العلامة الكبير» و «المصلح المجدد » .. وغير ذلك من الالقاب التى يتقارضونها ويسمون أنفسهم بها .. !

وتقول فى يوم آخر : « مازالت صحيفة حزب عبد العزيز فهمى

(تقصد جريدة « السياسة » التى كانت تدافع عن المؤلف) خالعة العذار ، متهتكة مستهتكة فى الالحاد ، لا تبالى انتهاك سترها ، خارجة على دين المسلمين ، دين الدولة المصرية والراية المصرية ..

وفى اليوم الثالث ترتفع درجة حرارتها جدا ، فتطلب « اضرام النار فى موقدى الفتنة ! » .

ولم تقف الى جانب على عبد الرازق الا جريدة « السياسه » .. فهى أولا جريدة حزب الاحرار الدستوريين الذى ينتسب اليه آل عبد الرازق ، هى ثانيا الجريدة التى جمعت أغلب الكتاب والمفكرين فى ذلك الوقت مثل طه حسين والمازنى ومنصور فهمى وهيكل .

كتب منصور فهمى عن الغزالى وفلسفته الاسلامية الحرة .. وكتب المازنى قصة « جاليليو » وفلسفته الاسلامية الحرة ..

كتب منصور فهمى عن الغزالى العالم الشهير الذى كان أول من قرر أن الارض تدور ، وكيف حاكمه القساوسة على هذا الاكتشاف وحكموا عليه بالاعدام ، لانه قال ان الارض تدور ..!!

وصدرت السياسة يوما تنشر فى صدرها صور الترخيصات التى تمنحها الحكومة المصرية للعاهرات ليزاولن بها الدعارة الرسمية .. وترخيصات نوادى القمار وبيع الخمور .. وسألت الدولة الاسلامية ومشايخ الازهر الاجلاء : هل هذه الدعارة مباحة شرعا فأنتم تسكتون عنها ؟ .. وهل هذا البحث الحر أزعجكم كما لم يزعجكم اباحة الدولة « الاسلامية » للدعارة والقمار ؟ .. أليست الحكومة المصرية ـ حينذاك ـ أولى بتهمة الكفر من على عبد الرازق ..

ورأت الحكومة أن الجو أصبح مناسبا للاقدام على أول خطوة ايجابية ، فأوعزت الى شيخ الازهر أن يجمع هيئة كبار العلماء لمحاكمة على عبد الرازق بصفته من العلماء ، وبسرعة البرق اجتمعت الهيئة ، وقرأت الكتاب ، وقررت أنه كفر والحاد وخروج على الدين .. وقررت استدعاء على عبد الرازق للحضور أمامها ومحاكمته فى سبع تهم ، تتركز فى الكفر والمروق ..

وانطلقت جريدة السياسة بكل أقلامها تهاجم هيئة كبار العلماء .. وكانت نقطة الارتكاز فى حملتها : ان الدستور قد كفل فى مواده حرية الرأى .. وأنه لم يجعل لهيئة كبار العلماء أو غيرها سلطة على الافكار ..

ولاحظ معى ـ أيها القارىء ـ ان الدستور الذى استندت اليه

جريدة السياسة كان فى ذلك الوقت معطلا ، وكان حزب الاحرار نفسه مشتركا فى حكم البلاد بلا دستور !!

وذهب على عبد الرازق الى مبنى الازهر حيث عقـدت الجلسة لمحاكمته . . ودخل قاعة كبيرة ، جلس فيها كل العلماء حول مائدة كبيرة ، فلما أن رآه شيخ الازهر ورئيس الجلسة حتى أشار اليه بعصبية قائلا : أقعد عندك ·· !!

وجلس المتهم ، ثم لوح الشيخ فى وجهه بالكتاب : الكتاب ده كتابك ·· ؟

المؤلف : أيوه ·· ومصمم على كل اللى فيه ··

ثم دفع المتهم دفعـا فرعيا ، هو أنه لا يعتبر نفسه أمام هيئة تأديبية ·· وطلب من الهيئة ألا تعتبر حضوره أمامها اعترافا منه بأن لها حقا قانونيا فى محاكمته ·· ورفضت الهيئة هذا الدفع ·· وبعد مناقشة المؤلف أعلنت الهيئة أن الحكم سيصدر بعد أيام ··

وفى ٢٥ أغسطس أصدرت هيئة كبار العلماء حكمها : بتجريد الشيخ على عبد الرازق من العالمية ، لانه أتى بأمور تخالف الدين والقرآن الكريم والسنة النبوية واجماع الامة » ·

وصدرت « السياسة » فى اليوم التالى ·· وفى صدرها كلمة رصينة للشيخ على عبد الرازق تقول :

« لا جرم أننا تقبلنا مسرورين اخراجنا من زمرة العلماء ، وقلنا كما يقول القوم الذين اذا أخلصوا من الاذى قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الاذى وعافانا » ··

وأعلن الشيخ الشاب أنه قد هجر ملابس الشيوخ ، وأنه سيصبح منذ اليوم « أفنديا » ··

والى جانب هذه الكلمة ، حفلت الجريدة بالتعليقات الكثيرة لكتابها البارزين .. من أجملها مقال بغير توقيع ، ينم أسلوبه عن أن كاتبه طه حسين ، يقول :

« ·· سنعرف أفى مصر دستور أم بهتان وزور ·· أيستطيع الناس أن يفكروا أحـرارا وأن يكتبوا أحـرارا ؟ وان يعيشـوا أحرارا ، أم هم مأخوذون بلون من التفكير والحياة ، يأمنون ماحرصوا عليه فان عدوه واعرضوا عنه فويل لهم من عذاب أليم ! » ··

« .. ايه أيها الطريد من الازهر ، تعال الى نتحدث ضاحكين عن هذه القصة المضحكة ، قصة كتابك والحكم عليه وعليك وطردك من الازهر .. ما بال رجال الازهر لم يقضوا على كتابك بالتمزيق . فقد كان يلذنا أن نرى نسخة فى صحن الازهر أو أمام باب «المزينين» أو فى ناحية من هذه الانحاء التى لا يأتيها ولا يصل اليها المنكر ولا يسعى اليها الا الاخيار والابرار ، ثم تضرم فيها النار .. !

« دعنا نتحدث فى حرية ولا تكن أزهريا ، فقد أخرجت من الازهر ..

«ثم تعال نجد ، فقد آن لنا أن نجد . ماهذه الهيئة التى أخرجتك من الازهر ؟ ما سلطتها الدينية ؟ على أى آية من كتاب الله تستند ؟ أركن هى من أركان الاسلام كالامامة ؟ كلا ، انما هى بدعة لا يعرفها القرآن الكريم ولا تعرفها السنة المطهرة ولا النظم الاسلامية .. هى بدعة فليس لحكمها صفة دينية ، ومن قال غير ذلك فهو آثم .. نعم آثم لان هذا النظام يشبه أن يكون من نظم النصارى لا من نظم المسلمين .. للنصارى مجلس للاساقفة ومجلس الكرادلة ولهم البابا ، أما نحن فليس لنا من هذا كله شيء ..

فسلام عليك أيها الطريد .. والى اللقاء ! »

ولا أستطيع الا أن أتوقف عن سرد القصة مرة أخرى .. واتساءل معك ـ أيها القارىء ـ عن هؤلاء الكتاب .. ما خطبهم ؟ .. هؤلاء الكتاب الذين يحملون لواء الدعوة الى حرية الفكر وأنا مؤمن باخلاصهم فى ذلك ـ كيف يثورون لحرية الرأى فى نفس الوقت الذى كانوا يؤيدون فيه وزارة تعطل الدستور وتصادر الحريات جميعا .. ؟

كيف تزعجهم الى هذا الحد مصادرة رأى كاتب واحد ، ولا تزعجهم مصادرة الدستور وآراء الناس جميعا ..

لقد كان الباحثون فى تاريخنا الادبى يصطدمون دائما بهذه الظاهرة الغريبة : ظاهرة تجمع كل رواد الادب والتفكير الجديد والبحث العلمى الحر ، فى المعسكر المعادى للدستور فى تلك الفترة الاولى من تاريخنا الدستورى .. كان فى هذا المعسكر هيكل وطه حسين والمازنى ومحمود عزمى ومنصور فهمى وغيرهم ممن قادوا الادب المصرى قيادة لا شك فيها .. وذهب هؤلاء الباحثون الى تفسير الامر أحيانا بأسباب عائلية ، وأسباب أخرى شخصية .. ولكن المسألة

ــ فيما أرى ــ تحتمل تفسيرا آخر أكثر « موضوعية » ، لعله لا يبعد كثيرا عن الصواب ..

فالواقع ان هناك فرقا بين الحركة كعقيدة اجتماعية ، تؤدى الى نظم وحقوق وواجبات ، وبين الحرية «كمنهج فكرى» يقوم على أسس فلسفية ..

فالحرية كعقيدة اجتماعية شيء جـــديد نسبيا .. مؤداه أن يكون الناس أحرارا فى اختيار نوع الحياة التى يحبونها ، وبالتالى فى اختيار نوع الحكومة التى يرونها قادرة على أن تحقق لهم هذه الحياة .. هذا النوع من الحرية يتنافى مع الرق الذى يجعـــل حياة العبد مكرسة لخدمة شخص آخر .. ويتنافى مع الدكتاتورية التى تفرض على النـــاس نوعا من الحيـــاة لا يوافقون عليه .. ويتنافى مع فكرة الحزب الواحد التى تجعل الانسان أما أن يختار هذا الحزب الواحد واما أن ينصرف عن كل اختيار .. وأقول ان هذه الحرية جديدة نسبيا ، لان وسيلة استعمال هذه الحرية وتطبيقها ــ وهى حق الانتخاب العام للجميع ، علماء وجهلاء ــ لم يتقرر الا منذ مائة سنة أو تزيد قليلا ..

أما الحرية كمنهج فكرى ، فشيء آخـــر أقدم عهدا .. وهى حرية كان يؤمن بها أفراد قليلون بلغوا من الثقافة والمعرفة درجة عالية ؛ فأصبحوا يرون من حق عقولهم أن تفكر وتكشف وتبتكر وتناقش بلا قيد .. فالفلاسفة الذين وضعوا كل شيء موضـــع المناقشة الحرة ظهروا قبل حق الانتخاب بقرون .. ورجل مثل أفلاطون أو أرسطو كان يؤمن ولا شك ايمانا مطلقا بحقه فى حرية الفكر ، دون أن يجد غضاضة فى نظام الرق الذى كان موجودا فى اليونان .. وجاليليو الذى رأى من حقه أن يعلن أن الارض تدور ، لعله كان يقتنى عبدا ، ليس من حقه أن يترك خدمته قط ..

فالحرية كمنهج فكرى اذن مقصورة دائما على السادة ، والممتازين فى الثروة أو الثقافة أو الذكاء .. وقد كان هذا شـــأن هؤلاء الكتاب .. كانوا من أوائل المصريين الذين شربوا من مناهل الثقافة الاوروبية الحـــديثة ، وقد عادوا فكانت أقرب بيئة الى ثقافتهم الرفيعة هى بيئة السادة من الاغنياء والمترفين الذين تشيع بينهم الثقافة أكثر مما تشيع بين غيرهم .. وهكذا رأينا طه حســـين يرى من حقه أن يصـــدر كتاب « الشعر الجاهلى » يناقش فيه قصص القرآن نفسه ، وعلى عبد الرازق يصدر كتابه هذا يناقش

فيه معتقدات رجال الدين الراسخة منذ مئات السنين .. وكانوا فى سبيل الدفاع عن آرائهم وبحوثهم مستعدين لتحمل أكبر العناء ، بل لقد تحملوه فعلا ! .. ولكنهم لم يكونوا يتحمسون بنفس الحماس لحرية الشعب .. كعقيدة اجتماعية ، يترتب عليها أن يكون هذا الشعب .. بتجاره وعماله وفلاحيه .. بعلمائه وجهلائه .. هو السيد ..

وقد تطورت الامور بعد ذلك بهؤلاء الكتاب .. منهم من أدرك ان قضية الحرية كل لا يتجزأ ، فأصبح « ديمقراطيا » مثل طه حسين ومحمود عزمى ، ومنهم من أعفى نفسه ونفض يده من المشكلة كلها ، فلم يعد يكتب الا مما يبعد عن هذه المشكلات الشائكة مثل المازنى ومنصور فهمى ، ومنهم من ظل متحمسا لقضية الحرية كمنهج فكرى وان بقى ايمانه بالحرية كعقيدة اجتماعية ضعيفا ..

⊙❖⊙

ثار اذن كتاب جريدة «السياسة» على الحكم القاضى بتجريد على عبد الرازق من رتبة العالمية ثورة عنيفة .. وذهبوا فى مهاجمة هذا الحكم الى أقصى الحدود ، واقفين بمفردهم أمام الجميع : أمام القصر وأمام رجال الدين ، وأمام الحكومة التى يشترك فيها حزبهم ، وأمام صحف الحزب الوطنى التى تطالب باحراقهم ، وأمام الصحف الوفدية التى لم تهتم بالقضية الا بقدر ما تشمت فى الاحرار الدستوريين ، وتنتظر خروجهم من الوزارة ..

أما القصر وحزب الاتحاد الذى كان شريكا للاحرار الدستوريين فى الوزارة ! ـ فقد قررا المضى فى احراج الإحرار الدستوريين الى أقصى الحدود .. وكان وزير الحقانية هو عبد العزيز فهمى رئيس حزب الاحرار وقد أرسل اليه حكم هيئة كبار العلماء لكى يفصل الشيخ على عبد الرازق من وظيفته كقاض شرعى .. فماذا يصنع؟ هل يفصل على عبد الرازق مضحيا بأسرة عبد الرازق التى تعتبر أساسا من أسس الحزب ، ومخاصما جريدة الحزب وكتابه ؟ أو يرفض الطلب مضحيا بالوزارة والحكم .. ؟

واختار عبد العزيز فهمى حلا وسطا فأحال حكم هيئة كبار العلماء على قلم قضايا الحكومة لبحث الموضوع وابداء الرأى فيه .. ولكن هذا الموقف لم يعجب السراى .. واستيقظ عبد العزيز فهمى ذات مساء ليقرأ فى ملحق أصدرته جريدة « الاتحاد »

مرسوما ملكيا يقضي « بتكليف علي ماهر باشا وزير المعارف بالقيام بأعباء وزارة الحقانية الى أن يعين لها وزير بدلا من عبد العزيز فهمي . . . »

هكذا طرد الوزير ، ورئيس الحزب من الوزارة شر طردة ..

وقابلت جريدة « الاخبار » المأساة أول الامر بالشماتة البالغة ، فكتب أمين الرافعي يقول : « ان الطرد عنوان التلامة والبرود .. وأي برود وأي تلامة .. برود حزب وتلامة حزب قاتلناه يوم كان علقة ثم مضغة ثم صور حزبا ! قاتلناه وهو رضيع ثم طفل ثم شاب ثم شيخ ، ولم نقاتله في سن الرجولة لانه لم يمر بها .. » .

ولكن الشماتة سرعان ما انتهت ، واتجهت الاخبار الى الجميع ، تهاجم « هذه السابقة الدستورية الخطيرة التي لا مثيل لها في تاريخ أمة دستورية متمدينة » ..

وقد كانت السابقة فريدة حقا . لم تحدث قبل ذلك قط ، ولم تتكرر بعد ذلك الا مرة واحدة في سنة ١٩٥١ ، حين صدر مرسوم بتعيين فؤاد سراج الدين وزيرا للمالية بدلا من زكي عبد المتعال ..

فماذا يصنع حزب الاحرار ازاء هذا الطرد الشائن ..؟

أما الكتاب فقد عزموا على المضي في الطريق الى غايته ، وقد ادركوا ان الحياة بغير دستور لن تزيد على هذا الهوان .. أما أصحاب المصالح الحقيقية الذين يكونون جوهر الحزب .. فقد ترددوا ، ومالوا الى البقاء في الحكم .. أيثارا لمصالحهم على كل الاعتبارات ..

ولا يروي لنا تلك اللحظات ، وهذا الصراع ، خير من الدكتور هيكل الذي لعب الدور الاول في هذه الايام والذي قال في مذكراته :

« لم اطق حين أتممت قراءة الخبر صبرا .. فماذا فعل الوزيران الدستوريان محمد علي علوبة باشا وتوفيق دوس باشا وقد اخرج رئيس الحزب من الوزارة على هذا النحو المزري بالحزب كله ؟ .. واتصلت بكازينو سان استيفانو بالاسكندرية تليفونيا . وطلبت التحدث الى توفيق دوس باشا وسألته عن الخبر ، فتلجلج قائلا : لا أدري ! قد يكون الخبر صحيحا .. قلت :

أريد أن أعرف على سبيل القطع .. فقال : نعم ، هو صحيح .. قلت : فماذا فعلت أنت وعلوبة باشـــا ؟ قال : أرجوك يا دكتور هيكل أن تهدىء ثائرتك ، فالامر يحتاج الى روية ! قلت : اذن سأدعو الحزب الى الاجتماع ..

« وقد علمت أن اتصالات كثيرة كانت تجرى بين المســئولين بالاسكندرية وبين جماعة من أعضـــاء مجلس ادارة الحـزب . لحملهم على معارضة تخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة .. وعلمت مساء الاثنين أن توفيق باشا دوس وحلمى عيسى باشـــا سيحضران من الاسكندرية وأنهما سيحاولان تجديد الاتصالات بالدستوريين لبقاء الحزب فى الوزارة ، وانى لهابط بالمصعد من غرفتى فى الفندق صباح الثلاثاء ، لقينى سيد باشا خشبة وقد ابتدرنى بعد التحية محتجا على مقالات السياسة تأييدا لكتاب على عبد الرازق ، ضارعا الى أن أدع شئون الدين لرجال الدين .. قلت : ولكننا نؤيد حرية الرأى التى قررها الدستور فان شئتم الا يحترم الدستور فأنا مستعد أن أترك السياسة وتحريرها ..

« وكان عبـد العزيز فهمى ما يزال فى الاســكندرية ، وقد أزمع المجىء الى القاهرة بالقطار الذى يصل اليها حوالى السـاعة الرابعـة بعد الظهر .. لهذا رأيت واجبا أن أخف للقـائه بمحطة السكة الحديد ، وأن أطمئنه الى ما اتفقنا عليه .. ولقيت الرجل أشد مايكون وجلا خشيـة أن تؤثر الحكومة فى أعضـاء مجلس الادارة ، وخيفة ألا يستقيل علوبة باشا ودوس باشا لو أن قرارا صدر من الحزب باستقالتهما ..

« واجتمع مجلس الادارة ، وقد بدأ توفيـق دوس باشـا يعرض ما حدث ، ويذكر ما دار بينه وبين رجال القصر ، وما دار بخاصـة بينه وبين مستر نيفل هندرسون المنـدوب السـامى البريطانى من احاديث يراد بها تخطى هذا الموقف الدقيق .. وتكلم بعده علوبة باشا كلاما فى الاتجاه نفسه .. فلما فرغ الوزيران تكلم الاستاذ عبد الجليل أبو سمرة فطلب الى الهيئة أن تتخذ القرارات التى كنا اتفقنا عليها وفى مقدمتها استقالة الوزيرين الدستوريين وتخلى الحزب عن الاشتراك فى الوزارة ..

وبينما كانت جلسة الحزب معقودة فى داره ، كان عبـد العـزيز فهمى باشا قد جاء الى فندق الكونتيننتال وجلس فى شرفة الفنـدق منتظرا نتيجة الاجتماع .. ولقد بعث من الجالسين معه من سأل غير

مرة بالتليفون عما اذا كانت الجلسه قد انتهت ٠٠ فلما انتهت الى القرارات (استقالة الوزيرين) اطمأن ، وعاد الى منزله مستريحا الى أن الحزب قد انتصف لكرامته » ٠٠

الى هذا الحد كان تردد الحزب فى ترك الحكم ، رغم كل هذه الظروف ٠٠ وما ترك الحزب الحكم الا بدفعات قوية من الكتاب محررى « السياسه ٠٠ ! »٩

فهل تعلم الاحرار الدستوريون من هذا الطرد شيئا ٠٠؟

ان عبد العزيز فهمى ٠٠ نفس الرجل الذى وصف الدستور بأنه ثوب فضفاض على هذا الشعب ٠٠ وقف بعد ذلك فى سرادق ٠٠ واسع يخطب ، ويعترف ، فيقول فى حرارة بالغة :

« قدر الله على أن دخلت الوزارة وكنت من قبل حرا طليقا ٠٠ ولكنها كانت محنة ، أحمد الله على أن نجانى منها قبل أن تأتى على البقية الباقية من الكرامة ! » ٠

ووصف الوزراء فى الوزارات غير الدستورية فقال : « لم يمض الا أقل من شهر حتى كان ما كنت أخشاه ، وظهر لى أننا لسنا وزراء ، بل أناس يراد سوقنا عند الاقتضاء الى ما لا يود الرجل الشريف» .

ولخص تجربته المريرة كلها قائلا : « ان من الواجب علينا أن نحافظ على الدستور فى كل مقام ، بقطع النظر عن كل اعتبار ٠٠ أن هذه الامة لا تسكت عن حقها ، انها قديمة العهد فى طلب الدستور ٠٠ !

(الجيزة ـ ١٩٥٤)



فهرس الكتاب

صفحة

- مقـدمة ١
- الادباتى خطيب الثورة ٣
- زواج الشيخ على يوسف ٣٥
- الجلاء ·· والدستور ·· والفن الجميل ٤٩
- امبراطورية زفتى ٦٧
- الأمة ·· بين سـعد وعدلى ٧٧
- الاسلام ·· وأصول الحكم ١٢١

اشتراكات كتاب اليوم

البريد العادى :

		مليم ج	
المجموعة الاولى	:	١٫٠٠٠	ج٠ع٠م٠ واتحاد البريد العربى
المجموعة الثانية	:	١٫٥٠٠	باقى دول العالم.

البريد الجوى :

		مليم ج	
المجموعة الاولى	:	١٫٢٥٠	(سوريا ـ لبنان ـ الاردن)
المجموعة الثانية	:	١٫٥٠٠	(دول اتحاد البريد العربى)
المجموعة الثالثة	:	٣٫٠٠٠	(دول أوربا)
المجموعة الرابعة	:	٥٫٥٠٠	(أمريكا الشمالية ـ الهند ـ دول جنوب أفريقيا)
المجموعة الخامسة	:	٦٫٥٠٠	(أمريكا الجنوبية ـ اليابان)

ترسل القيمة الى الاشتراكات ٣ (أ) شارع الصحافة بالقاهرة ـ تليفون ٧٧٨٦٠ ٧٧٧٧٧

شجرة تظلك بالأمن والرفاهية والاستقرار

الحساب الجاري
سهولة في
السحب والإيداع

صندوق توفير
البنك الأهلي المصري
فائدة ٣,٥٪ سنويا

خزائن حديدية
بإيجار زهيد
لحفظ مستنداتك الهامة
ومقتنياتك الثمينة

شهادات استثمار
البنك الأهلي المصري
بجوائزها الكبرى
تؤمن الحاضر وتضمن المستقبل

جهاز أمناء الاستثمار
لخدمة
المستثمر العربي

البنك الأهلي المصري
خبرة ٧١ عاما في كافة الأعمال المصرفية


أحدث مبتكرات
لعشاق الأناقة والذوق الرفيع
وولتكس
WOOLTEX
خلاصة خبرة ٣ شركات عريقة مندمجة
بوليتكس
البطاطين
الشرق
الشركة المصرية لغزل ونسج الصوف


بنك القاهرة
يمد خدماته إلى كل الميادين ، ويضع
في متناولك أكفأ جهاز مصرفي
صندوق التوفير
فائدة ٣٫٥٪
سنويا
الخدمة المسائية
بفرع البنك ٣٠ شارع طلعت حرب بالقاهرة
ورمسيس ٢٦ يوليو
من ٦ إلى ٨ مساء
بالإضافة إلى الأعمال المصرفية
الصباحية
خزائن حديدية
بإيجار زهيد
١٩ شارع عدلي بالقاهرة
و ٥ شارع صلاح سالم بالإسكندرية
فرع بورسعيد
الحساب الشخصي
فائدة ٣٫٥٪ سنويا
الإيداع والسحب فوراً مع كافة
الفروع بحيث أينما سافرت
اليانصيب
يشرف البنك على عملية اليانصيب للجمعيات الخيرية
ويقوم بصرف الجوائز من جميع فروعه ومقر اليانصيب
٣٧ شارع ٢٦ يوليو


كتاب اليوم

أثمن هدية تقدمها لأسرتك



وثيقة تأمين
معاشات
إضافية

للعاملين فى القطاع العام وأصحاب المهن الحرة والراغبين فى زيادة معاشاتهم والتأمين على حياتهم

- يصرف المعاش ابتداء من سن التقاعد
- تمتد مزاياه الى أسرة المتعاقـ
- يجوز استبدال المعاش بمبلغ نقـ
- يصرف مبلغ تأمين إذا حدثت الوفاة قبل الانتـ

شركة الشرق للتـ

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للتأمين

المركز الرئيسى ١٥ شارع قصر النيل : القا

لزيادة الاستعلام ت ٤١١٤١

